

مواقعنا المتخاذلة و سبيل التقدم

تأليف
محمود شاكر

المكتب الاسلامي

مواقعنا المتأخرة و سبيل التقدم

محمود شاكر

المكتب الاسلامي

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقيا : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدّمَة

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى إخوانه من الرسل والنبيين، وعلى آله وصحبه وسلم، *أما بعد* :

فإن كثيراً من الأفراد ما يتضايقون من الوضع الذي يعيشون فيه، ومن المنزلة التي يُنزلهم إياها المجتمع، والنظرة التي ينظرها إليهم. وتشكو كثير من الدول من المكانة التي تحتلّها بين الأمم، والموقع الذي تنزله بين الدول الأخرى. والواقع أن تلك المضايقة ليست بحقيقةٍ، وهذه الشكوى ليست بصحيحةٍ، فالمرء حيث يضع نفسه، والأُمّة مجموعة أفراد، وهم يختارون مكانتهم، والأُمّة هي التي ترسم موقعها بنفسها.

أرأيت لو أن امرأً لا يملك شيئاً، ويرفض السعي وراء الرزق، ويتكاسل عن العمل، ويأبى بذل الجهد، ويقبل الطلب من هذا، ومن ذاك حتى تتراكم عليه الديون، ويتطفّل على هذا القريب، ويذلّ نفسه للغريب، أين تكون مكانته؟ أليس في مُؤخّرة القوم؟

فمن الذي وضعه في هذا الموقع؟ أليس هو نفسه الذي رغب بهذا؟ لقد عوّد نفسه الكسل، وأذلّها في الطلب، وقبل الدنيّة و. . . . . . ثم جاء يشكو مجتمعه وما فيه من ظلم.

أرأيت لو أن إنساناً أعطى نفسه كلّ ما تشتهي، وترك لها قيادها وما تُحبّ، ورفّهها حتى غدت تستخشن الحرير، ويُؤثّر في جلدها اللمس، فلم تعد تقوى على مشقّةٍ، ولا يُمكنها أن تتحمّل أيّ أذىً، وجاءت سنوات عجاف، وظروف قاسية فلم يصبر صاحب تلك النفس على شظف العيش فأكل بكرامته، وشرب بمروءته، وقبل المهانة. فمن وضعه في هذا الموضع؟ أليست زيادة الرفاهية التي سار عليها، وتحقيق كلّ ما تشتهي نفسه، وتأمينه لها كل ما ترغب؟ أليس الصوم مدرسة الصبر؟ عن معاذ بن جبلٍ، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال له حين بعثه إلى اليمن: «إيّاك والتنعّم فإنّ عباد الله ليسوا بالمتنعّمين»[1].

أرأيت الذي ورث مالاً، وأخذ عن أبيه الأملاك، وجاءته النعم من كل مكانٍ، فبذّر وبدّد، وصرف وأنفق، وباع ما يملك وأسرف، وأبطرته النعمة، حتى إذا نفد ما عنده جاء يستجدي،

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٥/٢٤٣، و ٥/٢٤٤، وأبو نعيم في الحلية ٥/١٥٥.

ويحني رأسه أمام كل ذي مكانةٍ، وأصبح ذليلاً لا مهابة له ولا احترام، يحتقره الرفيق، ويُعنّفه الصديق، فمن الذي أحلّه في هذا الموقع؟ أليس سفهه، وسوء تصرّفه؟.

أرأيت الذي يرفض العلم، ويسير في طريق الجهل، ويتكلّم بما لا يعلم، فيقع في الغلط، ويُسبّب وقوع الآخرين فيه من أُولئك الذين يستمعون إليه، ويستمرّ على هذا حتى يُعرف بين الناس، فلا يُقبل منه بعدها رأي، ولا يُنظر إليه نظرة احترامٍ، فمن الذي وضعه في هذا الموقع؟ أليس الإصرار على الجهل، والحديث من غير علمٍ؟.

أرأيت الذي يكذب، ولا يزال يكذب، ويفتري الكذب، حتى يُعرف أنّه كذّاب، وعندها لا يُصدّقه أحد بكلمةٍ، ولا يُقبل منه حديث، ويُنظر بارتيابٍ إلى كلّ ما يقول، فيزدريه الخلق، ويمقته المجتمع. فمن الذي أحلّه هذه المنزلة الدنيّة؟ أليس كذبه، وسوء خلقه؟.

أرأيت أولئك الذين يتقرّبون من ذوي الشأن في كلّ وقتٍ، وفي كلّ مكانٍ، ويتزلّفون إليهم، ويرتمون أمامهم ليحصلوا على بعض فُتات الدنيا، فينالون منهم بعض المكرمات، أو يصلون إلى بعض المصالح والمنافع، أو ليبلغوا منصباً، وربّما يبلغونه، ويظنّون بأنفسهم عندها أنّهم قد غدوا كباراً، وأصحاب مكانةٍ مرموقةٍ،

وذوي منصبٍ مرهوب الجانب، وموضع الاحترام والتقدير، وقد يتملّق إليهم بعض من هم دونهم قُدرةً على التزلّف. . . . . . .
ولكن العامة مع هذا كلّه لا تنظر إليهم نظرة ارتياحٍ ، وقد تحتاج إليهم لما أصبحوا فيه، وتطلب منهم، ولكن لا ترجوا منهم خيراً، وتحتقرهم، ولا تُقيم لهم وزناً، وربما تُحدّثهم، وقلوبها تلعنهم لما هم عليه من الضعة والمهانة.

هذه أمثلة عن بعض الرجال، ومثلهم من يخلف الموعد، ويرتكب الفواحش، ويسعى وراء الرذائل، وكلّ منهم يضع نفسه في الموضع الأدنى، ويشكو بعدئذٍ عصره، وأهله وينحو باللائمة على الذين لا يعرفون الرجال، ولا يُنزلونهم منازلهم، ولا يُعطون أحداً قدره، ويعزون ذلك إلى فساد الطبائع، وضياع المروءات، وينطبق عليهم قول الشاعر:

نعيب زمانـنا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

هؤلاء الرجال ليس لهم أيّة مكانةٍ في أعين الناس، ولا ينظرون إليهم نظرة التقدير والاحترام، ولو كانوا ذوي جمالٍ وشكلٍ حسنٍ، أو ذوي نسبٍ، أو أصحاب مالٍ وفيرٍ، أو أهل منصبٍ كبيرٍ، لأنهم رسموا لأنفسهم طريقاً، وساروا عليها، ورضوا بها، ووضعوا لأنفسهم موضعاً أعجبهم، غير أنه لم يعجب الآخرين،

فأعطوهم قدرهم الذي يستحقّونه، وهكذا فكلّ امرىءٍ حيث يضع نفسه.

وبالجهة المقابلة فإن هناك أُناساً لم يملكوا المال، ولم يرثوا الجاه، ولم يحصلوا على السلطان، ولم يكن لهم نسب عظيم، ومع ذلك فهم موضع التقدير والاحترام من قبل الناس جميعاً حتى من خصومهم إن وُجد لهم خصوم، ومن قبل مُنافسيهم إن وُجد لهم منافس، فلا يُبرم أمر إلاّ برأيهم، ولا يُحلّ خلاف إلاّ في دورهم، إذا قالوا فقولهم الفصل، وإذا تحدّثوا سُمع لهم، وإذا تكلّموا أُطيعوا، وإذا نطقوا أحبّ الناس حديثهم، وما ذلك إلا لما امتازوا به من خلقٍ رفيعٍ، وأدب جمٍّ، وحديثٍ عذبٍ، مشيهم التؤدة والوقار، وقولهم الحكمة والأدب، لا يتكلّمون بغير علمٍ، ولا يفخرون بما تعلّموا، لا يُسرفون ولا يبخلون، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، لا يتتبعون عورات أحدٍ، ولا يتكلّمون عن امرىءٍ بسوءٍ مهما أساء إليهم، لا يفحشون بالقول، لا يتزلّفون لأي مخلوقٍ إذ يرون أن ما على الدنيا ليس سوى عرضٍ زائلٍ، يحفظون ماء وجوههم فلا يطلبون من امرىءٍ حاجةً، ويحتفظون بكرامتهم فلا يرغبون لأنفسهم غرضاً، يسعون في حاجات الناس. يُطلب منهم، ولا يطلبون من أحدٍ، ترى الناس على أبوابهم وفي بيوتهم بحاجةٍ إليهم، وهم ليسوا بحاجة أحدٍ، اكتفوا بالقليل،

وترفّعوا عن الطلب من الآخرين. . . . وكانت مكانتهم بين الناس، وسمعتهم بين الخلق، فهم بسلوكهم قد وضعوا أنفسهم بهذا الموضع المحترم.

وليست الدول إلاّ كالأفراد تضع مكانتها بنفسها بين الدول بنظامها الذي تسير عليه، وقوتها الجاهزة تحت يدها، والتي يمكن أن تستخدمها كل حين، واستعدادها الدائم، وقوة اقتصادها التي تجعلها ليست بحاجةٍ إلى أي مصدرٍ آخر بل يُمكنها أن تمدّ من ترى في مدّه مصلحةً لها ولانتشار أفكارها، وتسهيل تأدية مُهمّتها في الحياة، وفي نشاط أبنائها وتطوّر عقليتهم في إعمار الأرض. وبذا تشمل جوانب الحياة جميعها. ولتسهيل النظر في الموضوع وإعطائه النظرة الشاملة نرى أخذ هذه الجوانب كلّها، وننظر في كل جانب وحده.

١ - الجَانبُ السّيَاسي

تقوم الحياة السياسية في العالم اليوم على إقامة وحداتٍ سياسيةٍ كبيرةٍ لتكتفي من النواحي الاقتصادية، ولتكون لديها قوة رادعة تستخدمها حين الحاجة لضرب من يُفكّر بالاعتداء عليها، أو لتمدّ نفوذها، أو لتنشر أفكارها، ولم يعد هناك شرط ليجمع بين سكان الوحدة السياسية، عقيدة، أو لغة، أو فكر، أو قوم وإنما أصبح تحقيق الأهداف هو الدافع الأول لهذا التجمّع، ونلاحظ أن أوربا الغربية تسعى جاهدةً لإقامة مثل هذه الوحدة، وبدأت بإقامة السوق الأوربية المشتركة، وأتبعتها بالمجلس النيابي الأوربي، وتعمل الآن لوحدة النقد على الرغم من أنها أُمم شتّى، وتدين بالكاثوليكية، والبروتستانتية، وتتكلم لغاتٍ عدّة، من إنكليزيةٍ، وألمانيةٍ، وفرنسيةٍ، وإيطاليةٍ، وبرتغاليةٍ، وفلمنكيةٍ و. . . . . . هذا بالإضافة إلى التاريخ الحافل بالصراعات المستمرّة فيما بينها، فما يفخر به الفرنسي يمقته الإنكليزي، وما يُسرّ به الألماني يتضايق منه الفرنسي والإسباني وهكذا لا رابط بينها، ومع ذلك تعمل بجدٍ ودأبٍ لتحقيق الوحدة الأوربية لتقف أمام حليفتها الولايات المتحدة

حتى لا تكون تابعةً لها، وتـدور في فلكها، وتُحقّق لهـا كل مـا تُريـد من تنفيذ المخططات، وإعطاء الأدوار في اللعبة الدولية التي تُخرجها الولايات المتحدة الأمريكية، وتعمل على تمثيلها.

وإنّ نظرةً تاريخيـةً شاملةً إلى العـالم المعاصر نـرى أنّ التجمّعات السيـاسيـة التي تقـوم هي أكـثر بكثـيرٍ من الأفكـار الانفصـاليـة، وحـركات التجـزئة التي تحـدث، ولا يمكننا أن نستثني الـدول ذات المساحات الـواسعة جـداً من العمل عـلى تجمّعاتٍ سيـاسيةٍ أو ضمّ أجزاء أُخرى إليها، بل نُلاحظ أن هذه الدول هي في مقدمة الدول التي تسعى لمثل هذه التجمّعات، فالـولايات المتحـدة الأمريكيـة قد ضمّت إليهـا منـطقـة «آلاسكـا» ذات المنـاطق الثلجيـة والسكـان البـدائيـين، ثم ضمّت إليهـا أيضـاً جـزر «هـاواي» وسط المحيط الهادي، وتريد المزيد على الـرغم من أن مساحتهـا تزيـد على ثـمانية ملايين من الكيلومـترات المربّعـة. وإنّ الصين الّتي تـزيد مسـاحتها على أحد عشر مليوناً من الكيلومـترات المربّعـة قد ابتلعت تـركستان الشرقيـة، وتريـد الامتداد والتـوسع عـلى نـطاقٍ أوسـع. والاتحـاد السوفيتي الذي كان ينبغي ضمّ أفغانستان إليه، بل يقوم أساساً على انضمام جمهوريـات احتلّ الـواحدة منهـا تلو الأخرى، وابتلع الجـزء بعـد الثاني، ثم أقـام منها بـالقوة مـا أطلق عليه «الاتحـاد السوفيتي» دون رضىً من أهلها، وهذا ما جعل هذه الجمهوريات (الاتحاديـة)

أو (ذات الاستقلال الذاتي)، وكـذلك المقـاطعات ذات الاستقـلال الذاتي تُفكّر بالانفصال عندما انهار الفكر الشيوعي المفروض عليها، والمُلزمة به لتتخلّص من ذلك الكابوس الذي جثم عـلى صدرهـا ما يزيد على السبعين سنةً. وانكلترا التي تملك الجزر في مختلف البحـار والمحيطات، ومثلها فرنسا، وذلك يعود إلى مرحلة الاستعمار السابقة حيث كانت كلتا الدولتين تملكان مساحاتٍ واسعةً، وتعـدّانها أجزاء من أراضيها. هذه هي الدول الكبرى اليوم، وهي التي تُسيطر عـلى العـالم، وتتحكّم بمُقدّراتـه، وهي الأعضاء الـدائمة في مجلس الأمن الـدولي، وتلعب بالـدول الصغيرة، وتُسـيّرهـا في أفـلاكهـا، وربمـا تتنـافس فيمـا بينها على دولةٍ صغيرةٍ إذ كـلّ منها تُـريد أن تجـرّها إلى منطقة نفوذها. أما الحركات الانفصالية فقليلة جداً لمـا هو معـروف من الضيـاع الذي يلحق بـأجزاء الـدولة المفككـة، وعندمـا تحدث حركة انفصالية فإنما يكون وراءها غـالباً دولـة كبرى تُـريد أن تُحقّق من وراء الانفصال مصلحةً خاصّةً بها، أو تُنفّذ مُخـطّطاً رسمته لها، أو تعمل للقيام بلعبةٍ دوليةٍ مُعيّنةٍ.

ومع أنّ هذا الأمر واضح كلّ الوضوح، بل يُعدّ بدهياً، ومع أنّ الإسلام قد جعل من أبنائه أمةً واحدةً، فإن المسلمين مُجزّؤون تجزئةً قلّما تُوجد في أُمّة من الأمم. ولا شكّ فـإنّ لهذه التجـزئة أسبـابها، ونتائجها الخطيرة.

التجزئة:

جعل الإسلام من أبنائه جميعاً أُمّةً واحدةً ﴿إن هذه أُمّتكم أُمّةً واحدةً، وأنا ربكم فاعبدون﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾[2]، ونبّههم الله إلى أن مصيرهم الفشل إن هم تفرّقوا وتنازعوا فيما بينهم، قال تعالى: ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا، إنّ الله مع الصابرين﴾[3]، ويأمرهم بالوحدة، والاعتصام بحبل الله، وعدم التفرقة، فيقول تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها، كذلك يُبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾[4]، وحكم بالضياع على من يريد أن يتأخّر عن إخوانه أو ينفصل عنهم، فيقول رسول الله ﷺ: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية». ومع هذه التعليمات والتوجيهات الصريحة فقد أصابت التجزئة أُمّتنا، ولعلّ ذلك يرجع إلى أسبابٍ كثيرةٍ منها:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٩٢.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٠.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٤٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

١ ـ البعد عن الإسلام: لقد شغلت الدنيا أكثر المسلمين فاتجهوا نحوها بكلّيتهم، وشُغفوا بها، وعملوا لها، فصرفتهم عن تعاليم دينهم، ونسوا أنّهم أُمّة واحدة، وأنّ الفرقة بينهم ستُودي بهم إلى الهوان جميعاً، فيخسرون الدنيا، كما يخسرون الآخرة لما فرّطوا فيه من أمور دينهم، وذلك هو الخسران المبين. وهذا من أنفسنا، لا من صنع أعدائنا، فلا يحقّ لنا أن نضع اللوم على أحدٍ، ولا أن نُلقي بالتبعة على غيرنا، فإنّما هذا أمر فكري ينبع من قرارة نفوسنا، ولم يُفرض علينا من الخارج.

٢ ـ الأخذ بفكرة القومية: والقومية فكرة جاهلية يوم كانت الحياة قبليةً، وتتعصّب كل قبيلةٍ لقومها تعصّباً أعمى، وتنسب لهم كلّ المفاخر، وتُبعد عنهم كل المساوىء، ولو كانت تعشعش فيهم. وتلصق بخصومها كلّ جوانب السوء، ولو كانوا برآء منها، وتنفي عنهم كلّ مفخرةٍ، ولو عُرفوا بها.

ومن المعلوم أنّ القومية حديثاً إنما هي من غرس الأعداء شتلوها بيننا لتتجزّأ أُمّتنا، وتتفرّق كلمتنا، ونصبح مزقاً، يختلف بعضنا مع بعض، ويحدث الصراع بين الشعوب، ونعود كما كنا قبائل تتقاتل فيما بينها، وقد ساير بعضنا الأعداء وأخذ بهذه الفكرة، وحملها، وزيّنها للعامة، حتى شاعت، وأظهر الأعداء أنهم يحملون عليها ويعدّونها ـ زوراً وكذباً ـ أنّها وطنية مُتطرفة ليُقبل الناس نحو دُعاتها

ويُؤيّدونهم، وبذا يكون الأعداء قد أبعدوا الإسلام عن الساحة، وأحلّوا مكانه فكرةً لا تمتّ إليه بصلةٍ بل تنفر منه، ومكّنوا لأصدقائهم أعداء الإسلام في ديار الإسلام رغم انتمائهم له.

ومن المعروف أن القومية عاطفة، فهي ليست بمبدإٍ ولا بفكرٍ، ولا بنظامٍ لتقوم على أساسه، فما هو المنهج الذي يدعو إليه قوميو العرب، أو قوميو الترك، أو الفرس أو غيرهم؟ لا شكّ أنّ كلّ تجمّعٍ حزبيٍ يدّعي منهجاً، والقوميون من كلّ جنسٍ عدد من التجمّعات الحزبية الأمر الذي يدلّ على مُغالطاتهم، بل إنّ كلّ منهج يدّعيه أيّ فريقٍ ليس سوى منهجٍ غريبٍ عن أُمّتنا، دخيلٍ عليها، ويعود إلى مصدرٍ لا يبتعد كثيراً عن عداوتنا، وحربنا، والفكر، والمبدأ ليسا سوى شبيهين للمنهج. فالقومية ليست إذن سوى عاطفة حبّ قومٍ معيّنٍ، ورغبةٍ في وحدته، وعملٍ لذلك، لكن حسب أيّ نظامٍ، أو أيّ منهجٍ، أو أي دستورٍ، وعلى أيّ مبدإٍ، فهذا لا علاقة له بالقومية التي لا تلتقي مع الإسلام الذي يشمل منهجه جوانب الحياة جميعها، ويعدّ العصبية للأسرة أو القبلية، أو القوم نتنة تُؤدّي إلى تفريق الأُمّة المسلمة، وتشتيت شملها، وترك العمل للإسلام، والدعوة إليه. ووُجدت القبائل والشعوب للتعارف، والتعاون لتستقيم الحياة، ويكون التبادل لا للصراعات وشنّ الحروب فيما بينها، يقول الله تعالى: ﴿يا أيّها

الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، إنّ الله عليم خبير﴾[1]. فالدعوة إلى القومية تقسيم للأُمّة المسلمة إلى شعوبٍ مُتباينةٍ، إن لم يحدث بينها صراع، وهو مطلب بعيد، تجزأت إلى دولٍ صغيرةٍ، لا وزن لإحداها بين الأمم الأخرى. عندما يكون المسلمون أُمّةً واحدةً لا شكّ تكون دولتها ذات منزلةٍ بين الدول وتتقدّمها جميعاً بعدد السكان، وقوة الجيش ذي المعنوية المرتفعة لحمله فكرة الجهاد، وبالاقتصاد لوفرة الثروات وصلاحية المنهج، وبالنظام، وسيادة العدل، والمساواة، والأمن، والاستقرار والطمأنينة. ولكن عندما تتوزّع إلى عشرات القوميات، وتصبح عشرات الدول، فما هو الوزن السياسي لأي دولةٍ من هذه الدول؟. ولنأخذ أمثلةً على ذلك، الأكراد يُطالبون بدولةٍ لهم تضمّ شمالي العراق، وشرقي تركيا، وشمال غربي إيران، وأجزاء من سوريا. والبربر يُطالبون بدولةٍ لهم في بلاد المغرب تشمل مناطق مُبعثرةً في جبال أوراس، والقبائل، والريف، والأطلس. والبالوخ يُطالبون بدولةٍ لهم في المنطقة الغربية من باكستان مع بعض أجزاء من أفغانستان، وأخرى من إيران، ويحقّ لكل قومٍ أن يُطالب بهذا ما دامت القضية تقوم على أساس القومية، وتتجزّأ الأُمّة المسلمة وتذهب ريحها. وربما لا

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

تحسّ الأقوام الكبيرة التي تتألّف الأُمّة المسلمة منها كالعرب، والترك، والفرس بمغبة الانقسام، وسوء العاقبة لكثرة أتباعهم النسبية، ولكن العاقل من يُفكّر بالأمور من جميع الجوانب، وما تُؤدّي إليه. لنتصوّر «البالوخ» وقد حصلوا على مطالبهم، وشكّلوا لأنفسهم دولةً خاصةً بهم. فما هي مكانة هذه الدولة؟ إنها ضعيفة يجب أن تكون في حماية غيرها، فقيرة بحاجة إلى مساعدة سواها. ونتيجة الضعف والفقر فهي متخلّفة، وينظر إلى شعبها نظرة التأخّر. فنحن إذن بطرح فكرة القومية قد عملنا على تجزئة أُمّتنا، وإضعاف شعوبها، وإفقارهم، وتأخّرهم، فنحن الذين وضعناهم بهذا الموقع المتأخّر، ونحن الذين نجني على أنفسنا.

٣ ـ الموافقة على ما خطّط المستعمرون: ضعف شأن الأمّة المسلمة لما تهاونت جماعات منها بأمر دينها فاستطاع المستعمرون الصليبيون الذين قوي أمرهم بضعف المسلمين أن يدخلوا على المسلمين ديارهم، وأن يتمكّنوا فيها، وأن يعملوا على تنفيذ مخطّطاتهم.

كان من بين ما رآه المستعمرون الصليبيون أنّهم قد استطاعوا أن يقتحموا أرض المسلمين هذه المرّة لضعفٍ ألمّ بهم، ولكن لا بدّ من أن يقوى أمرهم، وتعود إليهم قوّتهم، ويجتاحوا أوربا وغيرها تارة أخرى، أو على الأقلّ قد لا يتسنّى للصليبيين دحر المسلمين بعدها

أبداً لما حصلوا عليه من قوةٍ وتوسّعٍ ، وقد أخذوا درساً مما سبق لذا يجب وضع المخططات المدروسة للحيلولة دون نجاح المسلمين ووعيهم حتى لا تعود إليهم القوة ثانيةً، وكان من فقرات هذا المخطط تجزئة بلاد المسلمين إلى أجزاء، وترسيخ فكرة هذه التجزئة في النفوس إضافةً إلى بثّ فكرة القومية التي سبق أن أعطينا لمحةً عنها فيما سبق.

قسّم المستعمرون الصليبيون بلاد المسلمين فيما بينهم حسب اتفاقاتٍ لعبت فيها القوة والسياسة دورهما، كما قسّم كلّ مستعمرٍ المناطق التي خضعت لنفوذه إلى أقسامٍ أصغر اعتباطاً. ورُبّما اتّخذ أحياناً القبلية أو الطائفية وسيلةً لهذا التقسيم، ولنأخذ مثلاً بلاد الشام التي قُسّمت بين الإنكليز والفرنسيين، فأخذ الفرنسيون الجزء الشمالي من الشام، وأخذ الإنكليز الجزء الجنوبي منها. ثم جزّأ الفرنسيون منطقة نفوذهم إلى سوريا ولبنان بحجة كثرة النصارى في لبنان الذين يُراد لهم أن يبسطوا نفوذهم على أكثرية سكان لبنان الذين هم من المسلمين، كما يُراد من نصارى لبنان أن يكونوا أداةً لتنفيذ السياسة الفرنسية في المشرق، ثم عادت فأعطت دولةً للدروز من سوريا وأخرى للنصيريين، غير أنها عادت فضمّت هاتين الدولتين إلى سوريا كي لا يكون تجانس بين السكان وتستطيع اللعب، والتدخّل، وحبك المؤامرات، وإيجاد الأعوان، وإثارة

الفتن، وليس تحت الضغط، كما يزعم بعضهم. وأمّا انكلترا فقد قسّمت منطقة نفوذها في الشام إلى جزأين هما: فلسطين، والأردن دون أي اعتبارٍ أو أيّ أساسٍ تدّعيه، وإن كان ضمناً هو التمهيد لليهود في فلسطين، ولكن لم تستطع التصريح به.

ويمكننا أن نتساءل هل كانت انكلترا تستطيع أن تعد اليهود بفلسطين لو كان المسلمون أُمّةً واحدةً؟ الجواب، لا. وقد جرّب اليهود مع السلطان عبد الحميد كل مُحاولات الإغراء ليسمح لهم بتأسيس بعض المستعمرات فلم يُفلحوا، رغم كل ما أشاع الأعداء عن السلطان عبد الحميد، ولو كان خليفة غير السلطان عبد الحميد ووافق جدلاً فإن المسلمين لم يسكتوا، وذلك لأنهم يعدّون فلسطين جزءاً من ديارهم. بل إن الإنكليز لم يقدموا على وعد اليهود بفلسطين إلّا بعد تجزئة بلاد الشام، ولم يبدأوا بمدّ الدعم السري إلّا بعد تجزئة منطقة نفوذهم، ولم يُعلنوا مساعدتهم لليهود، ويُصرّحوا بالوقوف إلى جانبهم إلّا بعد إلغاء الخلافة. ولذا كان الإنكليز خاصةً والصليبيون عامةً حريصين كل الحرص على عزل المسلمين عن قضية فلسطين، وحصرها بالعرب، ومع الأسف، فقد مشى العرب في هذا المخطط عن علمٍ أو من غير علمٍ. ثم أخذوا في محاولة حصرها بالأمصار المجاورة لها، ومشى العرب أيضاً في هذه الطريق، وأطلقت البلدان المجاورة على نفسها «دول الصمود

والتصدّي». وأخيراً كانت المحاولة لحصرها في الفلسطينيين فقط، وسار العرب أيضاً في هذا المخطط. ودعم الصليبيون اليهود بكل إمكاناتهم وطاقاتهم، وليس هناك من يدعم الشعب في فلسطين إلا بالخطب الجوفاء، والكلام الفارغ، والادّعاءات الخلّابة، حتى إن رؤساءهم الذين فُرضوا عليهم، وأعلنت الدعاية لهم، وصدّقت العامة هذا فمشت وراءهم، وحقّ لها أن تُصدّق، لجهلها، وللدعاية العربية لهم، وللنكبة التي لحقت بهم، والمنكوب يُصدّق كل شيءٍ يُعلن عنه أنه لمصلحته، بل يصبح يحلم به، والواقع أن رأس المنظمة لا يمتّ إلى القضية الفلسطينية بصلةٍ. وإذا استثنينا الدعم المادي السخيّ الذي تُقدّمه المملكة العربية السعودية، وبعض دول الخليج (للمنظمة) فليس هناك من مُساعدة سوى ما ذكرنا من الكلام والخطب.

وقضية فلسطين مُشكلة من مُشكلات المسلمين الكثيرة، وإن كانت أبرزها، وأهمّها، ولكن ما من بقعةٍ من الأرض يُقيم عليها مسلمون إلّا ولهم مُشكلة.

لقد رضي المسلمون بتقسيم المستعمرين الصليبيين، وتبنّوه، وعملوا على ترسيخ ذلك في نفوس الشعوب، حتى غدا أمراً مقبولاً باسم التعصّب للوطنية، والنظرة إلى المسلمين الآخرين على أنهم غرباء، ليس لهم حقوق المسلم، ولا يستحقّون واجب الأخوة،

وبـذا تفتّت المسلمـون في الأرض، وفي الشعـور، وأصبحـوا مـزقاً بفعل أيديهم، ورضا نفوسهم. وبذا ضعف أمرهم، وهـانت دولهم في أعين بقية الدول، ولنأخـذ مثلاً عـلى ذلك (دولـة المالـديف) إنها إحدى دول العالم، وأحد أعضاء دول الأمم المتحـدة، ومُعترف بها رسمياً، ولكن ما هو مكانها بـين تلك الدول؟ لا شـكّ أنها في آخر الركب، فمساحتها لا تزيد على ٢٩٨ كيلومتراً مربعـاً، وربما كـانت هذه المساحة أصغر من مساحة بعض المطارات الدولية، وسكانها لا يصلون إلى ثـلاثـمائـة ألف، فهي دولـة إذن ضعيفــة، وتحتـاج إلى حمايةٍ، وربما كان بإمكانية مائة رجلٍ مُسلّحٍ أن يُحدثوا فيها تغييراً، أو أن يستولوا عليها، وخاصةً أنها مجموعـة من الجزر يـزيد عـددها على ألفي جزيرة، وإن كان عـدد التي يُقيم عليها السكـان لا يزيـد على مائتين وخمسٍ وعشرين جزيرة. وهذه الدولة فقـيرة اقتصاديـاً، وبحاجةٍ إلى مُساعداتٍ دائمةٍ. ولما كانت ضعيفةً فقيـرةً، لا تُساعـد عسكـرياً، وإنمـا تطلب الحـماية، ولا تـدعم ماديـاً وإنمـا تحتـاج إلى الدعم، ولا شك فإن هذا يجعلهـا في مُؤخّرة الـركب. وهذا نتيجة التجزئة.

قـد يُلقى اللوم على الاستعـمار، وهذا مـا يفعله غالبـاً الضعفـاء الـذين يُلقون تبعـة كلّ أمـرٍ يفشلون فيـه عـلى غـيرهم، ولكن أين الاستعمار؟ ألم يدّع الكثير أن الاستعمار قـد زال؟ ويقول بعضهم أن

الاستعمار قد رحل بجنده، وبقيت أفكاره. والواقع أن العقلية عندها قابلية للاستعمار، وللرضوخ له. وأن عدم الاهتمام بأمر البلاد والعباد هو الذي أوصلنا إلى ما نحن فيه.

وقد تُلقى التبعة على المسؤولين، وهذا ما يتردّد على ألسنة العامة، ولكن الواقع أن المسؤولين ليسوا سوى أفرادٍ من الشعب، وهل يمكن أن تكون الرعية في وادٍ والمسؤول عنها في وادٍ آخر؟ لو صحّ هذا لاضطرّ المسؤول إلى ترك الأمر، أو أجبرته الرعية على ذلك، إذن ليست القضية مسألة أفرادٍ بيدهم الأمر بالجملة.

وربما ادّعى بعضهم أن المسؤولين يُقرّبون إليهم أمثالهم، ويُغرون جماعاتٍ بالمال، أو بالمنصب، وبما يفعلونه هم، وتتزلّف إليهم مجموعات ثانية للحصول على بعض المنافع، ويُخيفون آخرين، ويُهدّدون جماعاتٍ، حتى يستتبّ لهم الوضع، ولكن هذا ليس بصحيحٍ، فإنهم مهما فعلوا لن تكون بجانبهم إلا أقلّية. ويبقى للأكثرية دورها. أما إذ ادّعى بعضهم أنّ الأكثرية بجانب المسؤولين فقد انتهى الأمر، فنحن جميعاً مسؤولون ما دامت أكثريتنا بجانب أولي الأمر.

وهكذا فالتجزئة سبب رئيسي في فشل المسلمين وذهاب ريحهم، والموقع المتأخّر الذي يحتلّونه، بل تحتلّه كلّ دولةٍ من دولهم.

٤ ـ **التقليد**: من طبيعة النفس البشرية لدى العامة أن يُقلّد الضعيف القوي، والمغلوب يتبع سنن الغالب، وتذوب شخصية الجاهل في الوسط المتعلّم، ولما ضعفت الأمة الإسلامية، لتهاونها في أمر دينها، وقوي عليها المستعمرون الصليبيون، وتغلّبوا عليها، ودخلوا ديارها، واحتلّوا بلادها، وكان المسلمون كذلك في مرحلةٍ من الجهل أيضاً للسبب نفسه الذي أضعف أمرهم، وهو التهاون في شأن دينهم، لهذا كلّه فقد أخذ المسلمون يُقلّدون أعداءهم، ويسيرون على سننهم، ويشعرون بالهزيمة النفسية أمامهم، فزاد ضعفهم ضعفاً، وأصابهم الوهن، وهو حبّ الدنيا، وكراهية الموت.

وقد سبق أن قلت: من طبيعة النفس البشرية لدى العامة أن يُقلّد الضعيف القوي، ولكن هذا ليس قاعدةً، وليس لدى الناس جميعاً فالإنسان المؤمن المعتزّ بدينه مهما بلغت درجة الضعف بالوسط الذي يعيش فيه، ومهما وصلت إليه القوة الغالبة من الطغيان فإنه لا يخضع لها، وإن ألقى السلاح، ولا يتبع لها، وإن سكن مُوقّتاً، ولا يُقلّدها، وإن شعر بقلّة إمكاناته، وإنما يستعلي بإيمانه فوق كل القوى وأمام مغريات الدنيا. ولذا فإننا نجد الصفوة في المجتمع أولئك المؤمنين الذين وقفوا كالصخرة في وجه تقليد الأعداء. كما نلاحظ أن المسلمين عندما كانت لا تزال عندهم بقية من الاستعلاء

بدينهم قد عتوا على المغول الذين هزموا المسلمين وكانت نتيجة الاستعلاء بإيمانهم أن ذاب المغول في الوسط الإسلامي، ولم يذب المسلمون في المغول.

فالتقليد هو الهزيمة النفسية التي حدثت نتيجة الشعور بالضعف الذي وقع بسبب التجزئة.

٥ ـ **التبعية**: في الوقت الذي كانت فيه الدول الاستعمارية على اختلافها تتفاهم تفاهماً كلياً ضد المسلمين، على حربهم، ونهب بلادهم، وإذلالهم، وإبادة من يمكن إبادتهم، وفي الوقت نفسه كانت تتنافس فيما بينها للحصول على مزيدٍ من مناطق النفوذ أو لتحلّ محلّ الدولة المنافسة لها في جزءٍ من مُستعمراتها، ولنعطي مثالاً على ذلك وأعتقد أن الجميع يعرفونه. بعد أن تقاسمت فرنسا وانكلترا بلاد الشام فيما بينها، ورضيت كل منهما بنصيبها أخذت انكلترا تُحرّض السكان على فرنسا في سوريا ولبنان، فحرّكت أعوانها الدروز التي كانت على صلةٍ بهم منذ أحداث لبنان عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦٠ م)، كما أنها مدّت يدها إلى أولئك (الوطنيين) الذين وقفوا في وجه الاستعمار الفرنسي، وقدّمت لهم المساعدات، وحرّضتهم على التحرّك ضد الفرنسيين، ووعدتهم باستقبالهم في مناطق نفوذها إن اضطروا إلى الفرار من ديارهم، وبالفعل فقد كانت منطقة الأردن مقرّاً لاستقبال الهاربين من وجه فرنسا بعد

فشل حركاتهم، وخُصّصت مدينة الزرقاء لذلك، كما كانت أعداد تنتقل إلى العراق، أو إلى فلسطين، وهكذا مدّت انكلترا يدها إلى أكثر من وقف في وجه الانتداب الفرنسي من بلاد الشام الشمالية، كما أن أكثر هؤلاء قد مدّوا أيديهم إلى انكلترا وصافحوها، أو قبّلوا تلك اليد، وأبناء البلاد المخلصين لا يدرون ماذا يحدث في الخفاء، وتحت الأستار.

ولما خرجت فرنسا من سوريا، ووصل إلى السلطة أولئك المعارضون للانتداب الفرنسي كان لانكلترا الأفضلية الثقافية والتجارية في سوريا، وحلّت اللغة الإنكليزية محلّ اللغة الفرنسية التي كانت لها مكانتها في البلاد، وغدت انكلترا صاحبة النفوذ، وأصبح الذين كانت تدعمهم بالأمس أعواناً لها اليوم، تحرص على بقائهم في السلطة، وتقف في وجه خصومهم، حيث تستطيع عن طريق أعوانها أن تُنفّذ بعض مخططاتها، وتكون لها الأفضلية في التجارة والمشروعات، وبقيت كذلك حتى أخذت الولايات المتحدة تنافسها في ١ جمادى الآخرة ١٣٦٨ هـ (٣٠ آذار ١٩٤٩ م) عندما جاء إلى السلطة حسني الزعيم عن طريق انقلابٍ عسكريٍ قام به. ومنذ ذلك الوقت وإلى ١٦ شعبان ١٣٩٠ هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٧٠ م) والتنافس على أشدّه بين الولايات المتحدة وانكلترا على سوريا فما أن يستقرّ نفوذ حتى يحلّ مكانه نفوذ آخر بانقلابٍ

عسكريٍ، أو بتغييرٍ للحكم بمناورات سياسيةٍ. وهكذا كان لكل مستعمرٍ أعوان - مع الأسف - والشام كجزءٍ من الأُمّة المسلمة. . . . . وكان انقسام السكان بين أعوان هذا، وأعوان ذاك، وإن كان هذا لا يُشكّل إلاّ نسبةً ضعيفةً بين السكان إلا أنّه أمر واقع، وهذه القلّة هي التي بيدها الأمر وتتحكم في البلاد. وهكذا فإنّ هناك تجزئةً في التوجّهات، وما دامت قد وجدت تجزئة فليس من الغرابة أن نتراجع في مواقعنا إلى الخلف. ولكن الارتباط هو أشدّ خطراً من هذه التجزئة، بل هو الخطر نفسه، أن يوجد بيننا أناسٍ يرتبطون بأعداء أُمّتهم، ولن يكون هذا الارتباط إلا على حساب الأُمّة. وكفى بالأُمّة تعباً أن يكون بين أبنائها من يتخلّى عن أُمّته ويرتبط بغيرها، وكفاها ذلك لتحتلّ آخر المواقع، وتتخلّف عن غيرها من الأُمم، وهذا أمر يعود إليها، ولا يرتبط بغيرها.

٦ - **الحزبية**: الأصل ألا توجد أحزاب في ديار الإسلام أيّ في الأمصار التي تحكم بما أنزل الله، إذ المسلمون جميعاً كتلة واحدة ولكن عندما يكون المسلمون أقلّيةً في بلدٍ من البلدان، أو أنّ دولتهم لا تقوم على أساس الإسلام فلا بدّ للمسلمين عندئذٍ من أن يُنظّموا أنفسهم، ويتقوّوا حتى يُصبحوا أكثريةً وقادرين على أن يحكموا المصر، ويُطبّقوا منهج الله، وهذا التنظيم واجب، وهو وسيلة، وليس غاية، فإذا ما طُبّق نظام الإسلام، وأصبح الناس

جميعاً سواسيةً كأسنان المشط انتهى التنظيم تلقائياً، وغـدا المسلمون جميعاً كتلةً واحدةً.

في ديار الإسلام لا يُسمح بقيام تنـظيماتٍ إذ كيف يسمـح بقيام أحزابٍ إلحاديةٍ أو علمانيةٍ أيّ تعمل ضدّ مُنطلقات الأُمّـة ومبادئها، فالحكم يقوم على أساس الإسلام، ومُنطلقات الأُمّة إسـلامية فهل يمكن أن يُفسح المجال لمن يُهدّم هذه المبـادىء، ويدعـو لتقويضهـا، ويظهر العداء لها صراحةً، ويعمل عـلى نسف المنطلقـات الأساسية لها. وكذلك لا يسمح بقيـام تنظيمـاتٍ أو أحزاب ثـانيةٍ تعمـل على تجزئة الأُمّة، وهذا أمـر طبيعي، ولا حاجـة لأن نُبرهن عـلى ذلك، ولا داعي لأن ننـظر إلى نُظمٍ أُخـرى أو أُممٍ ثـانيـةٍ، لأن الإسـلام منهج قائم بذاته، ومع ذلك ومن باب تعريف القارىء نُعطي بعض الأمثلة، هـل تسمح الشيـوعية لأحـزابٍ رأسماليـةٍ بل لغـير حـزبها الـوحيد أن تقـوم في المنـاطق التي تخضـع للنـظام الشيـوعي؟ وهـل تسمح الرأسـمالية لقيـام أحزاب شيـوعيةٍ تُهـدّم، وتُدمّـر وتدعـو إلى الارتباط مع الدول الشيوعية المعادية لها؟ وهـل تسمح البلدان ذات الحكم الاستبدادي بقيام أحـزاب غير حـزب الحاكم؟ وهـل تسمح البلدان ذات النظام المُوجّه بتعدّد الأحزاب؟.

إن تعـدّد الأحزاب، ووجـود الحـزب ذي المبـادىء الإلحـادية، والعلماني، والاشتراكي، والقومي، والإقليمي، وكلها أحزاب تدعو

إلى ما يُخالف مبادىء الإسلام، ويُغاير منطلقاتـه، أي تهدم الأُسس التي تقوم عليها الدولة، والفكر الذي تعتمد عليه الأُمّـة. وإضافـةً إلى هذا الخطر العظيم فإن الأحزاب في الأمصار الإسلامية تُجزّىء الشعوب على عدد وجود هذه الأحزاب.

وإن نتيجة الأفكار التي تعمل لها مثل هذه الأحـزاب من مُعاداةٍ للإسلام ومُخالفةٍ لمبادئه قد جعل عند بعض الناس من العـامة أو من المتعالمين الجهلة، والذين قد يكتبـون عن التعالم، وينسـون أنفسهم أنّهم منهم، أن التنظيمات لا تصحّ، وأن كلمة أحزاب غير جـائزة، وهي حرام، وينسون قـول الله تعالى: ﴿لا تجـد قومـاً يُؤمنون بـالله واليـوم الآخر يُـوادّون من حادّ الله ورسـوله، ولـو كانـوا آباءهم أو أبنـاءهم أو إخـوانهم أو عشـيرتهم، أُولئـك كتب في قلوبهمُ الإيمـان وأيّـدهم بـروحٍ منـه، ويُـدخلهم جنّـاتٍ تجري من تحتهـا الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنـه، أُولئك حـزب الله، ألا إنّ حزب الله هم المفلحون﴾[1]. وينسـون أنّ الدعـوة لا بدّ لهـا من تنظيمٍ وتخطيطٍ، وجمعٍ، ودفعٍ، فإن لم تكن هناك دولة تُنظّمها فلا بـدّ من هيئةٍ تتـولّى هذا الأمـر، وهذا هـو تنظيم. وينسـون الواقـع الـذي يعيشـه المسلمـون في كثـيرٍ من بلدانهم، وفي المنـاطق التي

(١) سورة المجادلة، الآية ٢٢.

يعيشـون فيها كـأقليات، لننـظر إلى واقعهم في لبنـان مـع أنهم هم الأكـثرية بـالنسبة إلى الـطوائف كلها. لقـد نظّم النصـارى أنفسهم وكانت لهم قوة يخشى جانبها، ولذا يستطيعون فرض رأيهم، ونـظّم الشيعة أنفسهم، وكانت لهم قوة، وألزمـوا الآخرين عـلى الاعتراف بمـواقعهم، ونـظّم الـدروز أنفسهـم رغـم قلّتهم، وكـانت لهم قـوة، وأجـبروا الآخرين عـلى سماع صـوتهم، والاعتراف بمكـانتهم، حتى النصارى الأرثوذكس لهم تنظيمهم، وحتى النصيرية لهم مركزهم مع العلم أن نسبتهم العددية لا تكـاد تُذكـر. أما المسلمـون فأهـواؤهم مُشتّتة، وعندما وجد تنظيم إسلامي لم يجد الدعم من المسلمين لأن هناك بعض المتعالمين الذين يرون عدم التنـظيم. ويحصل النصـارى عـلى الدعم من فـرنسا عـامةً، والـدروز من انكلترا، والشيعـة من الـدولة التي تقـوم على أسـاس شيعي، والنصيريـة من الدولـة التي يتسلّط النصيريون على أبنائها، أما المسلمون فلا بواكي لهم، وليس هنـاك من يـدعمهم، والأمصـار الإسـلاميـة التي يفـترض أن تقف بجـانبهم، تُمالىء أعـداءهم، وتخشى أن يُقال عنهـا مُتعصبـة، فـإن سـاعدت، سـاعدت الجميـع من باب المسـاواة خوفـاً من اتهـامهـا بالتحيّز، كـما تخشى غضب الدول الكـبرى (الأصدقـاء) أما الـدول النصرانية فتدعم النصارى دون مبالاة، ونسكت.

فالحزبية قد قسّمت الأُمّة، وجزّأت أبناءها، وخـاصةً مـع وجود

التعصّب الحزبي، بل فرّقت بعض التنظيمات الإسلامية المسلمين الملتزمين نتيجة ذلك التعصّب الذي إن دلّ هنا فإنما يدلّ على جهل بالإسلام، وعدم المعرفة بما يقتضيه التنظيم الإسلامي.

٧ ـ **الأفكار المتباينة**: إن انقسام الأُمّة إلى أمصار ضعيفةٍ جعل بعضها يتجه إلى الشرق، وبعضها إلى الغرب، حيث تجد حمايتها، أو ترى في ذلك مصلحتها، أو تأخذ مساعدتها، كما جعل المعارضين في الدولة نفسها يأخذون اتجاهاً يُخالف اتجاه حكومتهم باستثناء المسلمين الملتزمين الذين لا يرون السير في اتجاه هؤلاء أو اتجاه أولئك وإنما يرون ضرورة السير في خطٍ مُتميّزٍ حسب ما يأمر به الإسلام، وحسبما تقتضي به مصلحة المسلمين. ويرى أفراد آخرون التوجّه وفق ما تقضي مصلحة أحزابهم، أو حسبما تمتدّ أيديهم ـ مع الأسف ـ وهكذا تجزّأ الشعب بين شرقٍ وغربٍ، ورأسماليٍ، وشيوعيٍ، وعلمانيٍ، وملحدٍ، ومسلمٍ ـ والأصل كلهم مسلمون، وينتمون إلى الإسلام، أو هكذا يدّعون، وقد يعتزّون، ولكن يرون الأخذ بغير منهجه، ويسيرون على غير مبادئه بعلمٍ أو بغير علمٍ ـ كما انقسم الشعب بين صاحب مصلحةٍ يسعى وراءها من منصبٍ، أو مالٍ، أو جنسٍ وبين إنسانٍ مستقيمٍ لا يرى إلّا مصلحة الأُمّة وقد يدّعي الجميع هذا الخط. وإنّ الأُمّة التي تنقسم هذا الانقسام لن يكون موقعها إلّا في مُؤخّرة الأمم هذا إن كان لها موقع، وإلّا

فهي تبع لغيرها تسير في فلكها، وإن لم تتمثّلها بعد.

وإنّ الأُمّة التي تتجزأ إلى أمصارٍ كثيرةٍ تصبح كلها ضعيفةً، وإلى أتباع بين هذه الأُمّة وتلك، وإلى أحزابٍ مُتنافرةٍ، وأفكارٍ مُتباينةٍ، وإلى آراء مختلفةٍ، وتترك منهجها لتتبع غيره، وتسلك طريقاً غير التي تأمر بها عقيدتها، ولا شكّ أن هذا كله بيدها، ومن صنع أفرادها، وسلوك أبنائها، وإن حاول بعضهم إلقاء التبعة على غيرهم، لا شكّ أنّ هذه أُمّة تضع نفسها في مُؤخّرة الصف، ولا تحترمها الأُمم، بل تنظر لها نظرة الازدراء، وتكون هي التي أرادت لنفسها هذا.

النتائج:

إن تجزئة الأُمّة هذه التجزئة الكثيرة، ونشوء دولٍ عديدةٍ، منها الصغيرة في أعداد السكان، ومساحة الأرض، ومنها المتوسطة في مساحة الأرض، وعدد السكان، ولكنها تمتاز جميعها بالضعف العسكري، والتأخّر الصناعي، والتخلّف الاجتماعي، وعدم سيطرة النظام بالشكل المرضي، ويعود هذا كله إلى التجزئة، وينتج عن ذلك نتائج على غاية من الأهمية.

١ - **الضعف** واحتلال مواقع متأخّرة نتيجة هذه التجزئة في الأرض، والانقسام بين المدارات، والاختلاف في الآراء، والتباين

في الأفكــار، والتــوزّع بــين الــدول الكــبرى، والتشتّـت بــين المعسكرات.

٢ ـ **الصراع بين الأمصار**: لما كانت الأمصار مُوزّعة الأهواء، فهي مختلفة فيما بينها، وربما حدث صراع بعضها مع بعضٍ، إذ هذه تدّعي الاشتراكية، وتتهم غيرها بالرأسمالية، وتلك تدّعي التقدّمية، وتلحق صفة الرجعية بدولةٍ ثانيةٍ، وثالثة تزعُم الثورية، وتقول عن غيرها مُحافظةً، وهذه ترى أنها تسير في خط الحياد الإيجابي، والواقع أنها منحازة إلى هذا الجانب أو ذاك. فإن الحياد الإيجابي الذي يُسمّونه هكذا إن هو إلاّ تسمية نظرية ليست واقعيةً. . . . لذا تحدث الصراعات بين الأمصار، ولعلنا نذكر ما حدث بين ماليزيا وأندونيسيا بشأن شمالي جزيرة (بورنيو)، وما حدث بين العراق وايران بشأن الحدود، وتطوّرت إلى حربٍ داميةٍ استمرّت عشر سنواتٍ. وما وقع بين سوريا والعراق رغم أن الحكم فيهما بيد حزبٍ واحدٍ، وكل طرفٍ يدّعي أنه الجناح اليساري، والطرف الثاني إن هو إلاّ جناح يميني. وما وقع بين مصر وليبيا، وما حدث من نزاع بين المغرب والجزائر بشأن الحدود، ثم من أجل الصحراء المغربية، وما حصل بين موريتانيا والسنغال بشأن الحدود وموضوع العرب والزنوج و. . . . . .

ولا شكّ أن هذه الصراعات ستزيد من الضعف، وتذهب بقوة

الطرفين، وستُضاعف الخلاف، وزيـادة الانقسام. ولنفـترض جدلاً أن نشأت دولة مستقلة في الصحراء المغربية ـ حسب رأي الجزائر ـ فـما الفائـدة من نشوء دولـةٍ ضعيفةٍ تحتـاج إلى حمايـة غيرهـا؟ وهـل ستضطر إلى الارتماء في أحضان دولةٍ كـبرى في سبيل المحـافظة عـلى استقـلالها، ودعم كيـانها؟ أليس من الأفضل أن تُضمّ مبـاشـرةً إلى إحدى جاراتهـا العربيـة المسلمة؟ يـا للعجب مما يفعله بعضنـا!!!. وتحـدث شماتـة فيما لـو تعرّضت دولـة مُخـالفـة لأزمـةٍ اقتصـاديـةٍ أو سياسيةٍ... فماذا نستفيد؟ وماذا نجني؟ يا للعجب!!!.

٣ ـ **التبعيـة**: إن الضعف يُؤدّي إلى طلب المسـاعـدة لإمكـانيــة البقاء، كما يُؤدّي إلى طلب الحماية في سبيل المحافظة على الاستقلال واستمرارية بقاء الكيان، لأن الضعف يطمع فيهـا كل الجـوار، بل كل الدول ذات الأطماع السياسية، والتي ترغب في بسط نفـوذها أو مدّ أفكارها، وحتى لا تقع الدولة الضعيفة فريسةً بيد دولةٍ أخرى لا ترغب في أفكارها، أو مُنافسةٍ لمن ترتبط بهـا، أو من معسكرٍ يختلف عن المعسكر الذي تتصل به، لـذا تطلب الحـماية، أو من الأسـاس تُسرع دولة كبرى، وتُعلن سيطرتها عليها لحمايتها.

هذا الموقف يجعلها في موقـع الذلّ الهـوان فهي كريشـةٍ في مهبّ الريح تدفعها هكذا وهكذا، والأمصار الإسلامية الأخرى في موقفٍ لا يُساعدها كثيراً على التدخّل لضعفها أو لخلافها فيما بينها، فإذا ما

فكّر مصر في إنجادها تعرّض لذلك مصر آخر لغاية في نفس يعقوب.

٤ ـ **توقّف الدعوة**: إنّ للأُمم أهدافاً في الحياة كتوطيد نظامٍ، أو مدّ نفوذٍ، أو تغلّبٍ على مُنافسٍ، ولا تتعدّى أهداف الأُمم ذلك، فالدول الرأسمالية مثلاً أهدافها توطيد دعائم النظام الحرّ. وترسيخ فكرة ما يُسمّونه بالديمقراطية، والتغلّب على النظام الشيوعي المُنافس، ومدّ النفوذ إلى مناطق أوسع من أجل تحقيق هذه الأهداف، وليس من مانع أن تعمل هذه الدول على نشر النصرانية لإيجاد أعوانٍ صادقين لتعميق جذور الاستعمار في المنطقة، وللوقوف في وجه المدّ الإسلامي كهدفٍ صليبيٍ، ولإرضاء الإرساليات التنصيرية التي لها مكانتها في الدول الاستعمارية مع ادّعائها العلمانية، وأن هذه الدول النصرانية تمدّ الإرساليات التابعة لها، ومجلس اتحاد الكنائس العالمي بمبالغ ضخمةٍ في سبيل تأدية مهمتها.

أما الأُمّة الإسلامية فمُهمّتها في الحياة العمل على نشر الإسلام، وهذا لا يتمّ إلا بتبنّي حكومات الأمصار الإسلامية، أو قيام تنظيماتٍ إسلاميةٍ قويةٍ تأخذ على عاتقها الدعوة، ولا يتحقّق هذا ولا ذاك مع الضعف القائم في الأمة الإسلامية، ولهذا نلاحظ توقّف الجهاد، وتوقّف انتشار الإسلام تبعاً له. وإذا كنا نُلاحظ بعض الانتشار له فإنما هذا يعود إلى أن الإسلام دين الفطرة يُقبل

الناس عليه تلقائياً، إضافةً إلى جهود بعض المؤسسات، وربما بعض الأفراد، ولولا السدود المنيعة التي تضعها أمامه الإرساليات التنصيرية، واتحاد الكنائس العالمي، والدول النصرانية على اختلافها لانتشر على نطاقٍ واسعٍ. ولو أن الأمة الإسلامية قوية، والجهاد قائم لعمّ الإسلام الأرض، ولسعُد أهل الدنيا بحياتهم في ظلّه.

إننا نجد أن ضعف الأمة الإسلامية وتجزئتها قد أوقف أداء المسلمين لمهمتهم في الحياة. والإنسان دون مهمة كالضائع الذي يتخبّط، ويترنّح، ومن كان هذا شأنه فهو في موقعٍ مُتأخّرٍ، ومكانةٍ مُتدنّيةٍ بين البشر، والأُمّة في موضعٍ متخلّفٍ عن بقية الأمم.

٥ ـ **فقدان الشخصية**: تتميّز الأُمّة بمنهجها الذي تسير عليه، أو بنظامها الذي تُطبّقه، أو بسلوك أفرادها الذي يُعرفون به، وقد تميز المسلمون قديماً بمنهجهم في الحياة الذي جعل منهم أُمّةً دقيقةً في نظامها، مُقيّدةً لأفرادها بسلوكٍ كله أدب وخُلق بل هو الأدب والخلق، وكانت جماعات كثيرة تدخل في الإسلام لما تراه من التجار المسلمين الذين يفدون إلى بلادها من أخلاقٍ مُتميّزةٍ لم تره في غيرهم فالاستقامة في العمل، والصدق في القول، والدقة في الوعد، والمحافظة على النظام، والنظافة، وهذا ما يُلزمها على احترامهم وتقديرهم، ومُحاولة تقليدهم، ثم لا تلبث أن ترى نفسها

مُسلمـةً، وتُعلن ذلك، وبهـذه الـطريقـة انتشر الإسـلام في جنـوب شرقي آسيا.

أمـا الآن فنـرى الـذين ينتمـون إلى الإسـلام مُنقسمـين فكـراً، ورأيـاً، ومُعسكـراً، وارتبـاطـاً، ليس لهم سلوك واحـد، منهم المستقيم، وقليـل مـا هم، ومنهم الـذي لا يعـرف الصـدق، ولا الاستقامة، ولا النظافـة، ولا المحافظة على النظام، ولا الصدق في القـول، حتى ارتبطت هـذه الصفـات ـ مـع الأسف ـ بـالمسلمـين، وغـدت النكت تُحـاك عـلى ذلـك، حتى فيـما بينهم، (المـوعـد بـين الصـلاتين) و (صـابون العـرب لحـاهم) و (كله يـروح بـالغسـل)، و ....

فالبعد عن الإسلام، والتجزئـة، وعدم الـرقابـة الإسلاميـة كل ذلـك يجعـل الشخصيـة المسلمـة تفقـد قـوامهـا، وتضيـع كيـانها، وأصبحت كلمة «مسلم» لا تدلّ على شخصيةٍ مُعيّنةٍ، إذ لكلٍ رأيـه الخاص به، وفكره الخاص، وتـوجّهه الخـاص، وسلوكه الخـاص، وليس هناك من جامعٍ لصفة الشخصية المسلمة.

٦ ـ **الضغط على المخلصين**: لما كانت هناك في المجتمع الإسلامي في أي مصرٍ من أمصـاره تـوجّهـات مُختلفـة، وارتبـاطـات مُتبـاينـة، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه دون أن تكون هناك رقـابة إسـلامية.

بل يوجد في كثيرٍ من بلدان العالم الإسلامي إلحاد صريح، ودعاية لـه، واتجاه علماني واضح وعمل لـه، وأفكار غريبة وفخر بها كالاشتراكية، والشيوعية، ومُخالفات للإسلام بالاختلاط، والسفور، والخلاعة و. . . . دون أمرٍ بالمعروف ونهي عن المنكر. وفي مجتمعٍ كهذا أين يكون موقع الملتزمين بالإسلام؟ إنهم قلّة لأن العامة تُشكّل أكثر المجتمع، وهي تتأثّر بالدعاية، والمصلحة، والكثرة و. . . . . لذا يبقى الملتزمون قلة، ويكون موقعهم في المؤخّرة بل ليت الأمر اقتصر على ذلك فهم مُعرّضون للاتهامات، وإثارة الشائعات حولهم، وهذا من خصومهم أصحاب المصالح والأهواء، وعندما يوجد في السلطة مرتبطون بدولٍ أخرى فإن كثيراً ما تحلّ النكبات بهؤلاء الملتزمين، وغالباً ما يكون هذا في البلدان التي تدّعي الثورية، والتقدّمية و. . . . .

فإذا كان المستقيمون مُلاحقين، والأوفياء مُهانين، وأصحاب الأخلاق مضغوطاً عليهم، والملتزمون إسلامياً في السجون، والمرتبطون وطنيين، والمخلصون الصادقون عملاء، ويتسلّق المتزلّفون على سلالم المناصب، ويُبعد أصحاب المروءات، ويُقرّب من لا مروءة له لتحقيق الشهوات. والمجتمع الذي هذا وضعه أين يا ترى موقعه؟ أعتقد أنه في مُؤخّرة المجتمعات. . .

وربما يتساءل المرء أليس في المجتمعات الأخرى هذا النوع من

الانقسام والتجزئة. وأعتقد لا يوجد في المجتمعات المتمدينة هذا الانقسام فلربما يوجد يمين ويسار حسب اصطلاحاتهم، وانقسام حزبي، وتباين في الرأي، غير أننا لا نجد خروجاً واضحاً على قيم المجتمع وعاداته، ولا رفع شعاراتٍ مُعاديةٍ للأُمّة، ولا ارتباط بدولٍ غريبةٍ ومُناداة بالسير في فلكها. والأصل أنه لا علاقة لنا بالأمم الأخرى حيث لنا تشريع إلهي لا يحقّ لنا تجاوزه، وليس للأمم الثانية من تشريعٍ إلا ما يضعه أفراد منها حسب أهوائهم ومصالحهم فلا يُقيّد عضواً غير مقتنعٍ به إلا باستخدام الضغط والإلزام. وليست هناك من قيمٍ في المجتمعات الأخرى إلا من خلال المصالح وتحقيق الشهوة، والحرية المطلقة ولو أصاب المجتمع فساد تام.

وأخيراً فإن الدول الاستعمارية الصليبية تحرص حرصاً شديداً على زيادة ضعفنا، وانقسامنا، وخلافاتنا فيما بيننا، وقد سبق لنا أن ذكرنا الصراعات التي حدثت بين بعض الأمصار الإسلامية، وقد كان المستعمرون الصليبيون خلف تلك الصراعات. وهذا يُعطي مُؤشّراً هو أن هذه الأمصار ليست مستقلةً استقلالاً حقيقياً، ولذا فهي تخضع لتأثيرات الدول النصرانية الكبرى، وتتحرّك بتوجيهات منها. وهي كذلك ضعيفة لذا كانت ألعوبةً بيد الذين يُخطّطون للعبة الدولية، ويقومون بإخراجها، ويأخذون الممثلين من هذه

الدول التي تدور في فلكهم.

وإذا ما وجدت الدول الكبرى قوةً برزت بين المسلمين عملت مجتمعةً ومتفقةً على تحطيمها بلعبةٍ من ألاعيبها، ولا مانع من أن أعطي بعض الأمثلة مما أراها، وحسب اجتهادي الخاص وتحليلي الشخصي.

رأت الدول الكبرى أن تُشغل المسلمين بأنفسهم، وتقسم صفوفهم انقساماً لا أمل في جبره ووصله، وخطّطت لتجعل الصراع بين المسلمين (السنة) وبين الشيعة فهذا خلاف تاريخي عميق الجذور، ويقوم على أُسسٍ عقيديةٍ من الصعب أن تلتقي بعضها مع بعض إلا إذا تراجع الشيعة عن بعض عقائدهم التي لعب في تكوينها المجوس، واليهود. . .

قوّت الدول الكبرى دولة إيران مقرّ الشيعة، والتي تعدّ نفسها حاميةً لهم بصفتها تضمّ أكبر نسبةٍ منهم، وبعد أن قوي أمرها، تخلّت الدول النصرانية الكبرى عن الشاه وأحلّت محلّه حكومةً تحمل الصفة الدينية كي يخضع لها الشيعة، وتُنادي بالإسلام كي تلقى تأييداً من المسلمين الذين يتعطّشون للإسلام بعد أن ظمئوا إليه لكثرة ما أصابهم من ويلات العلمانية، والاشتراكية، والثورية، والتقدّمية، والحكومات العسكرية، والعصبيات القومية، وذلك كي

تتقارب كفتا الميزان بعضها من بعض لأن الشيعة وحدهم لا يُشكّلون أكثر من ٦,٤٪ من مجموع من يدّعي الانتماء إلى الإسلام.

قامت الحكومة التي تحمل اسم الإسلام في إيران، وبرز على رأسها السادة الشيعة أي العلماء بالاصطلاح الإسلامي، وكان رئيسهم الموجه الحقيقي للدولة، وبيده مقاليد الأمور كلها، كما ارتبط به الشعب في إيران الراغب في الحكم الديني. وكان المخطط يقضي أن يمتدّ الحكم على منطقةٍ تشمل إيران، وجنوبي العراق، ومنطقة الخليج، وجزءاً من سوريا مع جنوبي لبنان، وبذا ينقسم العالم الاسلامي إلى منطقتين تفصل بينهما منطقة من الشيعة.

لقيت الحكومة التي عُرفت بالإسلامية في إيران تأييداً واسعاً، غير أن هذا التأييد لم يلبث أن تراجع عندما أعلن الخميني عن حقيقة حكومته، وأبدى تعصّبه الشيعي الواضح، وأظهر مُخالفته لبعض المبادىء الإسلامية الأساسية كعصمة الأئمة، وتفضيلهم على الأنبياء، وغيبة الشخصية الوهمية المعروف عندهم بمحمد المهدي، والذي يعدّونه الإمام الثاني عشر، فانتبه المسلمون الذين كانوا قد أصابهم الغش فتخلّوا عن التأييد، ومع تراجع التأييد فشل المخطط.

ومع فشل المخطط اقتضى الأمر ضرب القوة الإيرانية التي سبق

للدول الكبرى أن أوجدوها وأمدّوهـا بعناصر القـوة كافـةً، فأشعلوا الحرب بين إيران والعراق، ومع أن الحكم في العراق علماني، يقـوم على حـزب البعث، وهـو مكـروه في العـالم الإسـلامي لعلمانيتـه، وانتهـازية أتبـاعه إلا أنّ المسلمـين قـد دعمـوه ليس حبّاً في الحكم القائم في العراق، ولكن لوقوفه ضدّ الرافضة. ومع صمود الدولتين بعضهـما ضـدّ بعضٍ، وتحـريض العـالم النصراني لكـلا الـطرفـين لإمكانية سحق الجانبين، حيث كان الدعم يـأتي من اثنتين وخمسين دولةً، ثمان وعشرون منها تدعم العراق، وأربع وعشرون تمـدّ إيران. استمرّت الحرب، وفقد الطرفان الكثير من أبنائهما وإمكـاناتهـما. ثم بدا الخط العام بتفوّق العراق، وتوقفت الحرب بين الجارتين.

ومع نجاح العراق اقتضى الأمر ضرب قوة العراق التي نمت، ولا يصـحّ نموهـا في رأي الدول النصرانيـة الكـبرى، وضرب التجمّع الإسـلامي الذي وقف بجـانب العراق. غـير أن المخطط قـد عُدِّل باتخاذ قوة العراق وسيلةً لتفريق الصفّ الإسلامي، وهكذا كان.

أثـيرت غطرسـة حاكم، وأحسّ أنـه انتصر، وشعـر غـروراً أنه حقّق نصراً عظيماً، ودُفع بـاتجاه الكـويت، وهو بحـاجةٍ إلى المادة، وقـد أتت الحرب عـلى الكثير، وبحـاجةٍ إلى إشغـال جنده قبـل أن يُشغلوه، وبحـاجةٍ إلى تـوجيه نـظر شعبه إلى خـارج العـراق كي لا يبحثـوا في الأمور الـداخلية ومـا فيها من ظلمٍ وضغطٍ، ومن دمار

الحـرب، ونقص المواد، وبحـاجةٍ إلى أن يُـبرز انتصاراتٍ جـديدةٍ، حتى ولو كانت وهميةً، وموضوع مُطالبة العراق بالكويت قديمة تعـود إلى عام ١٣٧٦ هـ، دُفع نحو الكويت بحجّة الحصول على ما يسـدّ العجز الذي وقـع نتيجة الحـرب، وبحجّة المـطالبة بـالتعويض عن استخراج كميات النفط من جزيرتي «وربـة» و«بوبيـان»، إذ ليست هـذه الكميـات سـوى سرقـة من نفط «الـرميلة» في العـراق. وقـد أُعطيت الكويت الوعد بـالدعم، وعـدم الرضـا بالـدفع، فـأجابت الكويت العراق أن المسـاعدات التي قـدّمتها الكـويت للعراق أثنـاء حربها مع إيران تفوق سعر الكميات بكثير. فادّعت العراق أن تلك المساعدات تعويض عما استخرج من النفط، ولكن المطالبة بثمن ما سيستخرج، فرفضت الكويت الدفع بعنف، وهذا الأسلوب. . . . ومعها الوعد بالحماية.

دُفعت العراق وأعلمت أنه لا توجد معاهدة دفاع مع الكـويت، أي أُعـطيت العراق الضـوء الأخضر لتنفيذ مـا تريـد، فتقـدّمت في أرض الكويت، واحتلّتها، وكان لذلـك الاحتلال نتـائجه الخـطيرة جداً، ولست أدري إن كانت العراق تعرف أين تسير أم لا؟.

كانت حكومة المجاهدين في أفغانستان قد أبدت قوةً، وكـان من أهداف مخطّط احتلال الكويت تدمير القوة الأفغانية، وفعلاً قد كان لذلك الاحتلال أثره الكبير، إذ توقّف كثير من المساعـدات من دول

الخليج عن أفغانستان، بل شلّت حركة المستوصفات، ومنها ٢٧٦ مستوصفاً كان يُموّلها رجال من الكويت.

وأُرهقت دول الخليج بالمدفوعات، وبذا توقّفت المساعدات التي كانت تدعم بها الدعوة في الخارج، وتبنى المراكز الإسلامية والمساجد.

وأُعطيت قوة العراق حجماً أكبر بكثيرٍ من واقعها، فأصاب الرعب الدول المجاورة التي خشيت أن يُصيبها ما أصاب الكويت من تشريدٍ، كما أصاب الرعب الدول النصرانية الكبيرة والصغيرة حتى خشيت أن تعود القوة للإسلام الذي أصبح حاكم العراق يُتاجر به، لذا فقد أسرعت مُتحالفةً إلى المنطقة للوقوف أمام تحرّكات العراق الموهومة، والهدف الحقيقي إفساد المنطقة، وتغيير بنية المجتمع، ومُراقبة التحرّكات الإسلامية، وغدت المنطقة تحت إشراف القوات المتحالفة.

ومن أهداف احتلال العراق للكويت تجزئة المسلمين إذ انقسموا انقساماً غريباً نتيجة الرؤى المختلفة، والتحليلات المتباينة، والنظرات المستقبلية، وحسب الوعي السياسي الصحيح.

ويمكن من هذا المثال أن نرى أن كثيراً من الأمصار المستقلّة حسب نظرها غير أنها بالواقع ليست مُستقلّةً، وإنما تسير بفلك دولةٍ

كبرى، وتخضع لتوجيهها فكانت العراق هنا ألعوبةً بيد الدول الكبرى النصرانية، دُفعت فتحرّكت، ومثّلت دورها، ونُفّذ المُخطّط، وتمّ إخراج اللعبة حسب ما رُسمت، وكما أُعدّ لها.

٧ ـ **الافتتان بنظم الغرب**: لقد فُتن كثير من المسلمين نتيجة هزيمتهم النفسية بالنظم القائمة في الغرب، ومنها ما يُسمّى بالديمقراطية حتى ظنّ كثير منهم أنها أقرب ما تكون إلى النظام الإسلامي، بل ناقشوا وحرّروا الرسائل، ودوّنوا الكتب و. . . . ربما كان هذا النظام يصلح في البيئة الغربية غير أنه لا يصلح في البيئة الإسلامية أبداً، لأن البيئة الغربية ليس لها نظام سياسي خاص ينبع من عقيدتها، ويُقيّدها باتباعه، كما أنها نشأت على الصراع، وبما يتفق مع هذا النظام الذي يقوم على الصراع الدائم بين مجموعات متعددةٍ. أما البيئة الإسلامية فإنّ لها نظامها السياسي، وهو نظام الشورى، ويختلف اختلافاً بيّناً عن النظم الديمقراطية، وهو يقضي على الصراعات قضاءً كلياً، ولا يعترف بها، ولا يقرّ أن يعتمد النظام على رأي الشارع، ويأخذ بالشائعات، ويُحكّم الغوغائيات التي إن وصلت إلى السلطة عن هذه الطريق قضت على كل آثار الحضارة من عدلٍ، ومساواةٍ، وحريةٍ، وفكرٍ، وحكّمت الأهواء والمصالح الخاصة.

تعتمد النظم الديمقراطية على:

١ ـ الانتخابات: وتقوم على:

أ ـ الدعاية الشخصية: وهذا لا يقرّه الإسلام.

ب ـ ادّعاء ما لا يمكن تحقيقه، إذ ليس بقدرة الفرد، ولا يضمن عمله، وهذا ما يرفضه الإسلام.

جـ ـ نشر الشائعات ضدّ المنافسين، وهذا ما يأباه الإسلام.

د ـ المساواة بين الأفراد بغضّ النظر عن العلم، والجهل، أو الفكر وعدمه. وهذا ما يخالف الإسلام ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ فالأفضلية للعلم، والتقوى، وإمكانية العمل.

وعن طريق الانتخابات يكون النواب حسب المجتمع، فإن كان الجهل منتشراً، كان النواب جُهّالاً، وضاعت القيم، وذلّ الناس، وفقد العلماء مكانتهم، وساد السوء، وقديماً قال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهّالهم سادوا

ويصلح هذا عادةً للنظام الشيوعي الذي يريد أن يكون النواب قوى سكوت، يُوافقون على كل اقتراح لجهلهم، ويصدقون على كل رأي ما داموا لا يعرفون، ولا رأي لهم. وكذلك فإن سيادة الجهل تُؤدّي إلى شراء الأصوات أو حسب اصطلاحاتهم شراء الضمائر، لأن الجاهل لا فرق عنده يعطي صوته لمن يدفع، وهذا ما يوافق

عادةً للنظام الرأسمالي إذ تبقى دائماً السلطة بيد الفئة الرأسمالية التي على استعدادٍ لدفع المال. وهذا كله لا يقرّه الإسلام.

إن العلماء في الإسلام هم الذين يقترحون أهل الحلّ والعقد أو رجال الشورى، ويكونون رقباء على السلطة، تُوجّههم مصلحة الأمة، ويُقيّدهم الدستور الذي هو كتاب الله، وسنة رسوله، ويمكنهم الاجتهاد بالقياس، وبما أجمعت عليه الأمة عندما لا يجدون ما يبحثون عنه. وبهذا تبقى القيادة على المستوى المؤهل من أهل العلم.

٢ ـ المجلس النيابي: ويقوم على وجود حزبٍ سياسيٍ أو تجمّعٍ نيابي يتسلّم السلطة لأنه يضمّ أكثريةً نيابيةً وعلى معارضةٍ، تتألّف من حزبٍ أو أكثر، وتعمل على منافسة الذين بيدهم السلطة لإزاحتهم عنها، واستلامها منهم، وتدخل معهم في صراعٍ مستمرٍ، وتكون الدعايات، والشائعات، والمزاودات، وكلها لا يقرّها الإسلام الذي يقضي على كل أنواع الصراع كي لا تكون التجزئة، ويكون الكذب والدعايات، ويكون الافتراء والشائعات و.....

إن الإسلام لا يعرف الصراع الذي يقوم عليه ما يُسمّى بالنظام الديمقراطي.

وفُتن كثير من المسلمين بالنظام الجمهوري، وظنّوا أنه أقرب ما

يكـون إلى النظام الإسـلامي، ما دام يتمّ الاختيـار عن طريق ممثلي الشعب، وبـالتـالي من الشعب. ولكن نسـوا أو تنـاسـوا أن نـظام الإسـلام قـائم بـذاتـه وإن التقى مع بعض الأنظمة في جـانبٍ من الجوانب. ولكن لا لقاء بين الإسلام والنظام الجمهوري، فقد رأينا الانتخـابات التي تحـدث في النـظام (الـديمقـراطي) وعـدم مـوافقـة الإسـلام عليها. وفي حـالة انتشـار الجهـل فـإن رئيس الجمهـوريـة سيكون قائد هذه الفرقة، وهـذا بدايـة الانهيار. وإذا كـان الضغط المادي هو السائد كان رئيس الجمهورية سيّد الفئة الرأسمالية، وهذا له معناه الكبير.

ولا شكّ فإن مـدّة رئيس الجمهوريـة محددة بـزمنٍ معينٍ، ومعنى هذا أن كلّ مدةٍ ستتعرض البلاد لهزّةٍ عنيفةٍ، والدخول في صراعٍ، وهذا يأباه الإسلام. وربمـا شعر رئيس الجمهـورية بقصر المـدة التي سيتـولّى الحكم، فسيعمل عـلى الإفادة من هـذه المدة والحصـول ما يستطيع الحصول عليه، وتتحمّل البلاد هذا العبء الثقيل، وكذلك يأتي الرئيس الجـديد، ويحـاول عمل مـا عمل سلفـه، وتخسر البلاد الكثـير، وتبقى نهباً بـين هذا وذاك، وهـذا ما نـلاحظه في كثير من البلدان ذات النظام الديمقراطي الجمهوري.

وهذا النظام يُشجّع العسكريين للتحرّك وتسلّم السلطة، وتعيين قائدهم للرئاسة، كما يُشجّع كل تجمّع ولو كـان من قطاع الـطرق.

وهذا يرفضه الإسلام.

أما الخليفة فتبقى خلافته مدى الحياة ما لم يظهر كفراً بواحاً، أو خللاً في العقل، ويقيّده المبدأ الإسلامي، ويراقبه أهل العلم، وينصف المسلمون جميعاً.

٢ ـ الجَانبُ الإقتصَادي

ترتبط مكانة الأُمّة بقوة اقتصادها والذي يرتبط بدوره بـالأرض، والعمل، ورؤوس الأموال، والإنتـاج، والنظام، وبمقـدار ما تبـذل الدولة من جهدٍ لدفع عجلة الاقتصاد إلى الأمام بمقدار ما تسير نحو التطور، وتأمين رفاهية الشعب وسعادته.

١ ـ الأرض: عنـدمـا تكـون الأرض واسعـة الأرجـاء، وتضمّ نطاقاتٍ مُناخيةً مُتعددةً فإنها تكون مُتنوّعة الثروات أي لا تحتاج لأي نوع منها، ولكن عنـدما تكـون صغيرة المسـاحة فـإنها لا تُعطي إلا نـوعاً واحـداً من الثروات، فهي بحـاجـة إلى أنـواعٍ كثيـرةٍ، وقـد لاحظنا فيما سبق تجزئـة الأُمّة إلى أجـزاء صغيرة الرقعة، الأمـر الذي يجعل كلّ جزءٍ بحاجةٍ إلى الكثير من المـواد الأساسيـة، ويضطرّ إلى استيراد الأنواع المتعددة، ويحتاج إلى العمـلات الصعبة، وإلى عقـد المعاهدات، وبصـورةٍ عامـةٍ فهو يعيش تحت رحمـة غيره... وبـذا يتأخّر موقعه بين الأمم.

٢ ـ العمل: يجب على كلّ فردٍ قـادرٍ على العمـل في المجتمع أن

يعمل حسب اختصاصه، ولا يحق لأيّ امرئٍ أن يتقاعس أو يتكاسل بالعمل لأيّ حجّة مهما كانت، فلا زيادة المال، ولا عمل الأبناء، ولا الفقر حجة تمنع من القيام بالعمل وتأديته على خير وجهٍ، وعلى ولي الأمر أن يُراقب ذلك، فيُلزم بالعمل من لا يعمل، ويُهيّء الظروف لمن لا يجد عملاً، أو يوجد له ذلك، لأنّ الفرد ملك للأُمّة وليس ملك نفسه فإذا عمل استفاد، وأفاد مجتمعه، ومجموع عمل الأفراد ينتج كثيراً، ويعود الخير إلى الأمة فتستغني عن استيراد ما يُنتجه أبناؤها، بل تُصدّر ذلك الإنتاج، ويستهلك المجتمع جزءاً منه فيعيش في بحبوحةٍ ونعمةٍ، وإن تكاسل هذا، وتقاعس ذاك، وحاول إيجاد المبررات ثالث لعدم وجود العمل، كان تكاسل الأفراد عاقبةً وخيمةً على الأُمّة، إذ تكون بحاجةٍ إلى كل شيءٍ حيث يتوقّف الإنتاج، وتضطر إلى استيراد كلّ سلعةٍ لتأمين الحاجيات إلى الأفراد المتقاعسين، الذين يدعون المُبرّرات، ويأتون بالحجج.

وقد تهاون في الأمة الإسلامية كثير من أبنائها فليس هناك من مسؤولٍ يُلزم الناس على العمل، وليس هناك الأفراد الذين يحسّون بالمسؤولية وواجب العمل، إذ تُرك الحبل على الغارب. إننا نرى المقاهي في كثيرٍ من البلدان الإسلامية تفتح أبوابها ليلاً نهاراً، يرتادها نهاراً من لا يجد عملاً، أو الذين ليس لهم عمل، ويعمرها

ليلاً أولئك الـذين قضوا النهـار نومـاً حيث لا عمل لهم، وليس من رقيبٍ على هؤلاء ولا على أولئك، ولا على المقهى، وإنما يترك الأمر ليتصرّف الذين لا يعرفـون المسؤولية، ولا يقـدّرون الواجب حسبما يحبّـون. وربما تعـدّى الأمر ذلـك فوصـل إلى العمـل في المعـامـل، والإدارات، والدوائر فليس هناك من رقيبٍ، حيث يقضي الموظفون يومهم في تناول الشاي، وقراءة الصحف، وتبـادل الأحاديث، مـع العلم أن الوقت قد قلّ فيه الوعي، وتحمّل المسؤوليـة، والخوف من الله، ومُحـاسبة النفس، وعنـدمـا يقـلّ هـذا فـلا بـدّ من المـراقبـة، والمحاسبة، ومُكافأة المحسن، ومُعاقبة المقصّر، وإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه.

ولما كانت الرقابـة معدومـةً، والمحاسبـة غير مـوجودةٍ، والإهمـال قائماً، لذا كان مـردود العمل عنـدنا ضعيفـاً بالنسبـة إلى بقية الأمم المتمدينة، وكانت مواقعنا متأخرةً بين الدول، بل هناك ما هو أشدّ، وهو أنّ الأُمم الأُخرى تعـدّ هذا مُتعلّقـاً بالإسـلام من باب الـطعن به، والواقـع أنّ الإسلام بـريء من هذا كـلّ البراءة، وإنّمـا هو من فعل أبنائـه الذين أسـاءوا بتصرّفاتهم فنُسبت أعـمالهم إلى عقيدتهم، والصحيح أنّ هذا من فعـل الذين ينتمـون إلى الإسلام، وليس من فعل الإسلام، بل الإسلام يأمر بغير هذا.

ولا بدّ هنا من الوقوف على نقطتين أساسيتـين: الأولى: إن اليد

العاملة المستقدمة من خارج إطار الأمة لا فائدة منها، وإن ظهرت هناك فائدة مُوقّتة في بداية العمل حرصاً على العمل إلا أنه لا تلبث أن يظهر التذمّر، وضرورة المراقبة ليتمّ العمل، فمن يعمل لنفسه ليس كمن يعمل لغيره، ولنا في ثورة الزنج في البصرة، وحركة القرامطة ما يكفينا للعبرة. والثانية لا يصحّ نزع الملكية دون مبررٍ شرعي، وإلزام الناس على العمل في أرضٍ لا يملكونها بادّعاء مصلحة المجتمع، فإن ذلك يُؤدّي إلى الإهمال، وعدم الإخلاص بالعمل، وقلّة المردود، كما حدث في البلاد الاشتراكية إذ استمرّ هناك نقص الإنتاج حتى انهار النظام.

٣ - **رؤوس الأموال**: وهي أساس التطوّر بإقامة مشروعاتٍ إنمائيةٍ، والإنفاق على مُتابعة البحوث العلمية، والعمل في مجال الاختراع، وتأسيس المصانع الكبيرة التي يُمكنها تقديم الأدوات الكبيرة، كالآلات الزراعية، والصناعية، والعسكرية. وإن قيام الدولة بهذه الأعباء باسم المجتمع يُميت الحوافز الفطرية، فتزداد النفقات، ويضعف المردود، ويقضي على محاولة التطوّر، وأخيراً يتراجع العمل، وقد ينهار، كما حدث في شرقي أوربا.

وأمتنا تملك رؤوس الأموال اللازمة للعمل، وللمشروعات الإنمائية، غير أن بعضها:

أ ـ مُجمّـد في أيـدي النســاء وصنـاديقهن، عـلى شكـل حـلي ومجوهرات.

ب ـ مـودع في البلدان الأجنبية عـلى أنها أكثر ضـماناً، خـوفاً من التـأميم، أو تغيـير الأوضـاع إذ أن الأوضـاع في عـددٍ من الأمصار الإسلامية غير مستقرةٍ. وهذه الأمصار كلما جاءها مسؤول جـديد، وغالباً ما يكون عسكرياً أخذ بجمع المال، ويخشى أن يأتي غيره، كما جاء هو، فيضع ما جمعـه في المصارف الأجنبيـة، ويحرم بـلاده منها، وعندما تتكرر التغييرات تأخذ الأمصار بالفقر والحاجـة رغم أنها قد تكون غنيةً.

جـ ـ مُبـدّد على الشهـوات إذا زادت الأموال عـلى الحدّ أفسـدت بعض النفوس فاستعملتها فيما لا يـرضي، وخاصـةً أنها جاءت دون تعبٍ أو بذل جهدٍ، فأنفقت الكثير في ليالٍ أو ساعاتٍ محدودةٍ.

ونتيجة هذا كلّه فإنّ ما يملكه المسلمون لا يُستعمـل لمصلحتهم، وإنّما يعود بالنفع على غيرهم، وربّما ـ وهو الأغلب ـ عـلى أعدائهم، وتُحـرم بـلاد المسلمـين من الاستثـمارات، والمشروعـات الإنمـائيـة، والإنتاج، وينعكس هذا على السكان الذين يعيشون عـلى حالـةٍ من الفقـر، وحاجـةٍ إلى العمل والإنتـاج، وتتراجـع البلاد إلى الـوراء، وتكون في موقعٍ مُتأخّرٍ بين الأمم.

٤ ـ **الإنتاج**: وهو ما تُنتجه الأرض، وتصنعه اليد، ويبتكره الفكر، ويُحصل عليه بالجهد. ويرتبط عادةً بالأرض، واتساعها، وملكيتها، وأسلوب العمل، ورأس المال، والنظام السائد.

أ ـ **الأرض**: حيث هناك أراض زراعية، وأخرى رعوية، أو مُغطاة بالغابات، وثالثة جبلية أو صحراوية، يصعب استثمارها، وزراعتها فلا بدّ من بذل الجهد، والعمل على استثمارها، ونتيجة التطوّر أصبح من السهل تحويلها إلى أرضٍ مُستغلّةٍ، وجرّ المياه إليها، غير أن عدم الاهتمام، والحاجة إلى رؤوس الأموال المهدرة يجعلان الركود عاماً، والإنتاج ضعيفاً، والموقع متأخّراً.

ب ـ **الاتساع**: لا شكّ أن الأرض الواسعة تُعطي إنتاجاً أوفر، يكفي السكان ويفيض، وغلاتٍ مُتنوّعةٍ تسدّ الحاجة. ويمكن إقامة مشروعاتٍ كبيرةٍ تقدّم الفائدة للأرض وللناس، ولكن رأينا أنّ البلاد قد جُزّئت، لذا فإنّ الإنتاج عامةً مُجزّأ، وقلّما يكتفي مصر من الأمصار من سدّ حاجته بمحصولٍ واحدٍ، وإذا اكتفى بمحصولٍ، احتاج العشرات، وعاش الشعب في ضنكٍ، حتى عُرفت بطاقات التموين في كثيرٍ من البلدان الإسلامية، وكان موقعها متأخّراً بين البلدان الثانية.

جـ ـ **الملكية**: عندما تكون الملكية صغيرةً فإنّ كلّ فردٍ يعمل

بأرضه ويجدّ ويتعب كي يكفي نفسه، ويكون المردود جيداً، والإنتاج وفيراً، ولكن عندما تكون الملكية واسعةً، ولا يُشرف صاحبها بنفسه عليها، وإنما يُكلّف غيره، فإن المردود قليل، والإنتاج ضعيف، وقلنا أن من يعمل لنفسه ليس كمن يعمل لغيره، ويمكن أن تُقدّم الملكيات الواسعة إنتاجاً كبيراً إن كانت الآلة هي أسلوب العمل، وهذا لم يتوفّر - مع الأسف - في العالم الإسلامي لأن رؤوس الأموال مُهدرة. وأمصار العالم الإسلامي كثيراً ما تنتشر فيها الملكيات الواسعة، ولا تستعمل الآلة لذا فإن المردود ضعيف، والإنتاج قليل، وكثيراً من المساحات ضائعة هدراً لا فائدة منها، ويعيش الناس في حاجةٍ، وتضطر الدولة إلى الاستيراد، وأحياناً طلب المساعدة، وتتراجع في موقعها الذي يجب أن تحتلّه.

د - **أسلوب العمل**: إن الفقر الذي يسود أجزاء واسعةً من العالم الإسلامي، لقلّة الإنتاج، وقلّة المشروعات، وقلّة رؤوس الأموال فإن الناس يضطرون إلى استعمال الأساليب القديمة في الاستثمار إذ كثيراً ما نرى المحراث الروماني القديم الذي يجرّه ثوران لا يزال مستعملاً، أو المحالج القديمة، والمعاصر التي تستخدم الحيوان في إدارة الدارسة و. . . . . وهكذا كله يُؤدّي إلى بذل جهدٍ كبيرٍ دون الحصول على إنتاجٍ وفيرٍ، فلا تكتفي الدولة بما تُنتج، وتضطر إلى

الاستيراد الأمر الذي يُؤدّي إلى ارتفاع السعر، فلا يستطيع كل فردٍ من الحصول على ما يحتاج إليه لفقره. . . . . ويكون التخلّف والتأخّر.

هـ ـ رؤوس الأموال: إن قلّة رؤوس الأموال للأسباب التي سبق أن ذكرناها، تجعل الدولة عاجزةً عن إنجاز المشروعات الإنمائية التي تحتاجها البلاد، وعن إقامة المصانع التي تنتج ما تحتاج إليه الأمة، كما تكون عاجزةً عن مُتابعة التطوّر العلمي، ومُواكبة التقدّم التقني الذي يشهده العالم.

و ـ النظام: تسير بعض دول العالم الإسلامي حسب النظام الاشتراكي الذي يسحق الأفراد باسم مصلحة المجتمع، ويتخذ من السلطة آلةً لذلك السحق، ويسير بعضها الآخر حسب النظام الرأسمالي الذي يسحق المجتمع على يد فئةٍ قليلةٍ من الأثرياء. وفي كلا الحالتين فالقسم الأكبر من الشعب مسحوق إما بيد هؤلاء وإما بيد أولئك، وهذا يعني أن بناء الأمة مُتداعٍ، وكيانها مخلخل، ولا يُؤدّي العضو واجبه كاملاً، وإنما يترنّح، ويتململ، ويشعر الفرد بالضيق والتعب في الحياة، ويكون في مُؤخّرة الركب.

أما النظام الإسلامي الذي من عند الله، وقد أُمرنا باتباعه، وهو النظام المتوازن الذي لا يسمح للفرد أن يطغى على المجتمع، ولا يفسح المجال للمجتمع أن يدوس الفرد، والذي فيه السعادة لمن

سار على نهجه فقد تخلّينا عنه، واتبعنا أنظمةً وضعيةً فيها الصراع، وفيها سيطرة الفرد على المجتمع، أو إذابة كيان الفرد في المجتمع. وما هذا إلاّ نتيجة الهزيمة الفكرية، والشعور بالتبعية، والإحساس بالنقص. ومن تبع غيره، وشعر أنه دونه، لا شكّ أنه قد أعطى نفسه مكانةً تجعله متأخّراً، بل وفي مؤخرة الركب.

الزراعة:

إضافةً إلى ما ألمحنا عنه في موضوع الإنتاج فإنّ الزراعة في العالم الإسلامي قد تدنّت بشكلٍ مُخيفٍ، نتيجة تبديد الثروة، ورؤوس الأموال الأمر الذي قضى إلى عدم إمكانية إقامة المشروعات الزراعية والتي تعمل على توسعة الرقعة المستثمرة، وارتفاع المردود، وزيادة الإنتاج. ونتيجة الإهمال الذي يبدو من جانب المسؤول والرعية على حدٍّ سواء إذ ليس هناك من تشجيعٍ، ولا إيجاد حوافز، وتقديم مساعدات والإرشادات اللازمة، وتأمين البذار والآلات الضرورية والأساسية للعمل.

ونتيجة إعطاء أصحاب الأراضي الواسعة أرضهم إلى عمالٍ أو مُستقدمين دون الاهتمام والإشراف، والاكتفاء بما يحصلون عليه، وعمل المستقدمين لا يُقدّم إلاّ أقلّ القليل، لعدم وجود الرقابة، ولأن من يعمل لنفسه ليس كمن يعمل لغيره. لذا فقد قلّ الإنتاج

لدرجةٍ كبيرةٍ، وتأثّرت الأُمّة جميعاً لأن هذا الإنتاج إنما هو بالواقع من أكثرية الأرض، وأحسنها جودةً، وأفضلها خصباً، وهذه صفة أرض الأثرياء، وكبار الملاّك.

ونتيجة استخدام الأسلوب القديم في الزراعة لدى الفقراء، والذين بالأساس لا يملكون إلاّ مساحاتٍ ضيقةً إذ يعتمدون على جهدهم العضلي، أو جهد الحيوانات، ورغم بذل الجهد الكبير، إلا أنّ المردود ضعيف والإنتاج قليل.

ونتيجة التأميم الذي وقع في البلدان التي أخذت بالنظام الاشتراكي حيث تردّى الإنتاج فجأةً، وانخفض المردود مباشرةً، لأن العامل في الأرض المؤممة لا يعمل لنفسه، ويتقاضى راتبه المحدّد له من حكومته سواء أكان الإنتاج حسناً، أم ضعيفاً، أم معدوماً، لذا فالأمر عنده واحد، وليس لديه أية حوافز، كما ليس لديه أي وازعٍ يمنعه، أو مانعٍ يردعه عن الإهمال الذي يُبديه، فلا رقيب دائم الإشراف عليه، ولا يخشى الله الذي يطلع عليه في كل لمحةٍ أو طرفة عين يقوم بها، لأن البلدان التي اتخذت من النظام الاشتراكي منهجاً لها غالباً ما تكون من الدول العلمانية، والتي لا تقوم على التربية الدينية، لتوجد الرادع الديني، والخوف من الله الذي يمنع الإنسان من أن يتصرّف أي تصرّفٍ مشينٍ. لذا فالإنتاج قد أخذ بالهبوط، وأصبحت البلاد بحاجةٍ إلى ما كانت تصدّره من الفائض

عنها. وربما نُلاحظ إنتاج القمح في كلٍّ من العراق، وسوريا، ومصر، والجزائر، والمغرب وننظر إلى الخط البياني الهابط للإنتاج منذ ظهور فكرة الاشتراكية.

وأخيراً فإنّ هناك عاملاً مهماً جداً، وهو العامل العسكري، إذ أن الأمصار التي سيطرت عليها العقلية العسكرية، قد رتع الجند في الأرض، فكانوا يُتلفون المزروعات بتحرّكاتهم، ويُفسدون في الأرض حتى يتركوها خراباً يباباً، ويُخيفون الآمنين، ويُرهبون السكان، فأهمل الكثير من المزارعين أرضهم، وترك الكثير من الفلاحين حقولهم، خوفاً من الأذى الذي قد يُصيبهم فيما إذا عملوا على حماية زراعاتهم. لذا فإننا نلاحظ أن الإنتاج قد انخفض كثيراً في البلدان التي يتحكّم فيها العسكريون، وإنه لمن الخطر على البلاد والعباد أن يُسيطر عليهم أناس حاقدين، مُتعطشين إلى السلب والنهب للوصول إلى الثراء كي يغبّوا من الترف ما شاء لهم هواهم أن يغبّوا، دون رقيبٍ ولا حسيبٍ إذ أنهم هم الذين اقتحموا الأسوار وسيطروا على البلد بأسنة حرابهم، فلهم الحقّ أن يرعوا كما يشاؤون، وقد وصلوا إلى هذا الحق بالسيف، وأخذوه بالقوة، ومن أراد منعهم فإنما هو يتحدّاهم، ويُريد أن يدخل كما دخلوا..... هذا هو المفهوم السائد لدى العسكريين.

الصناعة:

لا يوجد أي حافزٍ من الحوافز في أكثر الأمصار لتطوّر الصناعـة، ومع ذلك فقد نمت بعض الصناعـات وتطوّرت، ولكنهـا لم تُحم من مُنافسة البضائع الأجنبية، ومع ذلك تابعت العمل وقبلت المنافسة، وتمكّنت من استمرارية النمو، وأخيراً ظهرت فكرة التأميم، وطُبّقت في بعض البلدان، فماتت الصناعة حيث أُبعد أصحـابها النشيـطون عنها بعد أن قضوا حياتهم في سبيل تطوّرها، وأنفقوا عمـرهم لرفـع مستواها، وتسلّم الإشراف عليها من لا يعرف شيئاً عنها، وبـراتبٍ مُحـدّدٍ شهريـاً، لا يهمه سـواه أتقدّمت الصنـاعـة في المعمـل الـذي يُشرف عليـه أم قُضي عليها، وضـاعت الصناعـات، وكلنـا يعـرف بلدانـاً كانت تمـلأ أسواق جـوارها من بضـائعها فلما دخـل التـأميم توقّف التصدير، وانقلب إلى استيرادٍ نتيجة الحاجة.

لم يعـد إنسان يسعى إلى التـطوير خـوفـاً من أن يُصيبـه التـأميم الذي يُراقبه وينتظر وصوله إلى الخط المحـدّد له، فقُتلت المـواهب، وتعطّلت الأفكار، وتراجع المدّ الصناعي، واحتلّت البـلاد مواقعهـا المتراجعة نتيجة السياسة الخرقاء. ولو أنّ امـرأً قاده فكـره إلى بعض الابتكارات، وعُرف أمره لنال من العـذاب ألوانـه، إذ تقضي الحياة أن نبقى في المؤخرة، وتبقى بلادنا أسواقاً للبضائع الأجنبية، ونـظلّ تحت رحمـة السوق الخـارجيـة. وننفق أمـوالنـا لصـالـح أعـدائنـا،

ويعيشون في رفاهيةٍ على حساب بؤس رعيتنا. أعرف قرية بالشام اتجه أهلها نحو الصيد، حتى صار صغارهم وكبارهم يعملون فيه، وقد قادهم توجّههم هذا إلى اختراع بنادق للصيد بوسائلهم الأولية، فمُنعوا من ذلك، ورُصدت تحرّكاتهم. فلو كان هناك من يهتمّ، ولو كان هناك من يرغب في تطوير الصناعة وتقدّمها، لأُقيمت لهم المعامل الخاصة بذلك، ومُنحوا الحوافز اللازمة لنشاطهم. ولكن أين أولئك؟ لقد قُتلت تلك المواهب في مهدها.

أعرف إنساناً ذا ذهنٍ صناعيٍ، صنّع المدفأة الفرنسية، وأضاف إليها بعض المواصفات الخاصة بعمله، ولكن لم يلبث أن مُنع من تلك الصناعة، ثم قام بتصنيع ساحب الروائح الذي يُوضع عادةً في المطابخ، وكان الإقبال عليه كبيراً حتى أصبحت بلاد الشام والعراق وإيران تتسوّق هذه البضاعة، ولما انتشر هذا الانتشار الواسع فُرضت عليه ضرائب لا يستطيع دفعها، لضرب هذه الصناعة، ثم مُنعت.

وأعرف إنساناً شُغف بالمسدسات، وكان ذا فكرٍ صناعيٍ، فقلّد المسدس البلجيكي المشهور «٩ مم»، وكان بإمكاناتٍ تعبويةٍ مُمتازةٍ، وقام بالتجربة الأولى، والثانية، والثالثة، ونجحت معه كلها تماماً، فسُرّ سروراً كبيراً حتى نسي نفسه، ونسي مكان إقامته، فقدّم مسدساً لرئيس الدولة، وآخر لوزير الدفاع، وظنّ أنه سيحصل على

مُكافأةٍ عظيمةٍ، وسينال «براءة صناعة»، وسيوضع مشرفاً على معملٍ يُؤسّس لهذا الغرض، ضمن أعمال مؤسسة معامل الدفاع، وجاءت المكافأة بوضعه في السجن، وعذابه العذاب الشديد ليعترف عن عدد المسدسات التي صنّعها، وإلى أية مجموعةٍ فدائيةٍ قدّمها، ولما لم يفعل شيئاً من هذا لذا فقد بقي في السجن حتى وصل إلى نهايته المحتومة.

أي صناعةٍ تتقدّم في مثل هذه البلاد؟ وأي أُناس يُفكّرون في تطوير صناعتهم؟ إن الصناعة ستبقى ضعيفةً في بلدانٍ من هذا النوع، ويتولّى أمرها رجالاً من هذا الصنف، وستبقى أمصارهم بحاجةٍ إلى غيرها، وإلى مدّ يدها وطلب المساعدة، وتكون في آخر الركب، في ذلك الموقع المتأخّر.

التجارة:

مهنة أساسية لتأمين حاجات الأمة، وتوفير دخلٍ جيدٍ لها. غير أن التجارة في أكثر أمصار العالم الإسلامي قد فقدت مهمتها الرئيسية وذلك لأن البلدان التي أخذت بمبدأ النظام الاشتراكي، قد أصبحت الحكومة (اسماً) تتولّى القيام بهذه المهمة، ويعمل المتنفّذون على مباشرة هذا العمل، وإدخال الأرباح إلى الأرصدة الخاصة، ويحرصون على زيادة الأرباح، فيرفعون من أسعار البضائع، ويتحمّل الشعب هذا الارتفاع، وبذا فإن المتنفّذين يأخذون هذه

الزيادات من الشعب مُباشرةً ومن الفقير الذي يُعيل أسرةً كبيرةً قبل غيره. أما في البلاد التي أخذت بمبدأ النظام الرأسمالي فـإن المتنفذين أيضـاً شركاء للتجـار، لأنهم أكبر من أن يُبـاشروا العمل بـأنفسهم، وتكون الصورة نفسها لا فرق بين نظام رأسمالي واشتراكي إذ في كلا الحالتين يتحمّـل الشعب الدفـع، ويعيش في فقرٍ أو حـاجةٍ. وتبقى البلاد مستغلّةً من الخارج من الشركات المحتكرة، والـدول الأجنبية المستغلّة، ومن الـداخـل من المتنفّـذين الـذين لا يعـرفـون الـرحمـة بـإخـوانهم، فكيف تصـل الـرحمـة في قلوبهم إلى الآخـرين. وتبقى البلاد نتيجة ذلك في موقعٍ متأخّرٍ.

أما النظام الإسلامي فقليل أولئك الذين يريدون العمل بتشريعه من الكبار والمتنفذين لأنه لا ينسجم مع مصالحهم، وتحقيق منافعهم في زيادة الأرباح والحصول على الثراء الفاحش.

٣ـ الجَانبُ الإجْتِمَاعِي

كل تشريعٍ يجب أن يشمل جوانب الحياة كلها، والإسلام تشريع، وهو من وحي خالق الإنسان الذي بيده الحياة كلها، لذا فهو تشريع يضمّ كل ما يصلح للإنسان في هذه الحياة بشكلٍ دقيقٍ، ولا يصلح تشريع آخر سواه، لأنها كلها من وضع المخلوقات الذين لا يملكون إلا عقولاً قاصرةً، ومعرفةً محدودةً، وغالباً ما تطغى عليهم المصالح والأهواء، لذا نجد أن هذه القوانين تتبدّل باستمرار تبعاً لمصالح الذين بيدهم السلطة، وغالباً ما يكون بقاؤها لمدةٍ محدودةٍ.

والمسلمون لهم تشريعهم الخاص بهم، ويجب عليهم المحافظة عليه والتمسّك به، وهناك بعض الجوانب الاجتماعية الأساسية التي يجب الانتباه إليها، والاهتمام فيها، ومنها:

١ ـ **الاختلاط**: لما كان للمرأة مهمتها الخاصة في الحياة، ومن جملة مهماتها أن تكون سكناً للرجل، وفي الوقت نفسه فهي فتنة له، ولكل امرأةٍ رجل خاص بها يسكن إليها، وتتخذ فتنتها له لتُثير بها

كوامن الغريزة التي أودعها الله فيه، لتُؤدّي الحياة الزوجية غرضها، وتستمرّ الحياة في الأرض، ويكون الإعمار.

ولو أبرزت فتنتها لغيره لاختلط النسل، وضاعت الأنساب، وكانت الغيرة والحمية، وكان الصراع والاختلاف، والإسلام يُريد أن يقضي على الصراع لا أن يشعل ناره، ويزيد من سعيره، ومن هنا كان على المرأة ألاّ تبرز فتنتها لغير زوجها، ولا تبدي زينتها لغير محارمها، سواء أكان ذلك في الطريق أثناء السير أم في أيّ مكانٍ، ومن هنا كان تحريم الاختلاط سواء أكان في ذلك في مكان العمل أم في البيوت أم في أيّ موضعٍ.

ومن مُهمّات الرجل أيضاً أن يكون سكناً للمرأة لا ينظر إلى غيرها ولا يُفكّر فيما سوى اللواتي أحلّهن الله له، ولو فعل لثارت غيرة المرأة، وربما كانت هناك ردود فعلٍ، فاتجهت إلى غير ما أحلّ الله لها، وفكّرت بما يوسوس لها الشيطان، وكانت الفتنة، وكانت الخلافات، وهذا ما يُحاربه الإسلام، لهذا يجب أن يكون مجتمع الرجال معزولاً عن مجتمع النساء، ولا يصحّ الاختلاط بينهما حتى لا تكون فتن، ولا صراعات، ويبقى صفاء النسل، وصحة النسب.

ولما كان المجتمع الإسلامي قد هُزم أمام الاستعمار الصليبي عسكرياً، لذا فقد أخذ ضعاف النفوس من المسلمين يُقلّدون

المتصرين، ويتركون نظامهم الاجتماعي، ويتخذون نظاماً غريباً عنهم، وُضع لمجتمعٍ لا يُقيم للقيم وزناً، ولا يهتمّ بحفظ الأنساب، مجتمعٍ كافرٍ، وُضع هذا النظام بأيدي أناسٍ لهم أهواؤهم، وشهواتهم، ومصالحهم. وإن الذين يراهم الغربيون من المقلّدين لهم لا يُمثّلون المجتمع الإسلامي أبداً، وإنما يُمثّلون أنفسهم فقط، أو يمثّلون العناصر التي تركت تشريعها، واتّجهت تلهث وراء الغرب.

٢ ـ السفور: لما كانت المرأة فتنةً، لذا كان عليها أن تستر كل ما يُثير حفيظة الرجل، وكل ما يجعل الصراع يُنشب أظفاره في المجتمع، وهذا ما يفرضه الإسلام، ولقد طُبّق هذا النظام بضعة قرونٍ، وكانت له نتائجه الإيجابية. ولكن لما هُزم المسلمون أمام المستعمرين الصليبيين، أخذ التقليد يلعب دوره في المجتمع الإسلامي، وبدأت بعض النساء تخرج سافرةً، مُخالفةً نظام مجتمعها، ومُخالفةً أوامر عقيدتها، هوىً ومصلحةً، وإن أوّل من خرج من نساء المسلمين سافراتٍ كنّ نساء الذين يتطلّعون إلى السيطرة والنفوذ، ويُسيطر عليهم حبّ الزعامة والسلطان، ويريدون أن يظهروا أمام المستعمرين الصليبيين أنهم غير مُلتزمين بالإسلام، ولتحصل الموافقة على زعامتهم وسيادتهم، ويطلبون من نسائهم السفور، ويدعونهنّ إلى الاختلاط، وكانت زوج سعد

زغلول أول من رفعت حجاب الحياء، وتركت لباس الحشمة في مصر، وزوج عبد الرحمن شهبندر في الشام.

إن الذين يتنكّرون لنظامهم، ويسيرون وراء أصحاب نظامٍ آخر، يلهثون خلفهم لمصلحةٍ، مهما كانت تلك المصلحة، لقد كتبوا على أنفسهم التبعية، ورضوا أن يكونوا وراء الآخرين في مُؤخّرة الركب.

٣ ـ النظافة:

إن الجهل الذي ورثه المسلمون من المرحلة الماضية قد ولّد عندهم بُعداً عن الدين، ومن هذا البعد عدم النظافة، وكذلك فإن الجهل يُورث عدم الاهتمام. ومن عدم النظافة ينشأ المرض، ومن المرض يتولّد الفقر، والفقر يدعو إلى الجهل الذي يصبح مُركّباً، فالأمور مُتداخلة بعضها مع بعضٍ.

كما أن المُناخ يلعب دوراً أساسياً في هذا الموضوع فالأقاليم الحارة، والغابية، والصحراوية تُساعد على عدم الاكتراث بالأوساخ وتراكمها. ومن هذه الأقاليم انتقل الناس إلى المدن فاستمرّوا على ما هم عليه من عدم المبالاة بالنظافة، إذ لم يتخلّصوا من عاداتهم السابقة، ولم يُسايروا النظافة التي تقتضيها ظروف المدينة، ولم يُبالوا بتعاليم الإسلام التي تحثّهم على النظافة.

٤ ـ اللباس :

يظنّ بعض الناس أن لبس المرقّع، والممزّق، والوسخ إنما هو من الزهد، والإعراض عن الدنيا، وطلب الآخرة، وهذا جهل، وبُعد عن الدين، جاء إليهم من المجوسية التي تمخّضت عنها الصوفية، والتي أخذ شيوخها بهذه البدع والخرافات، فانتشرت بين العامة في مراحل الجهل، وقلّة الدعاة الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وهذا اللباس المخزي الذي لبسه شيوخ بعض الطرق استفاد منه الصليبيون واتّهموا الإسلام بعدم النظافة، والرغبة في عدم إظهار النعمة، كما أن هذا التصرّف في اللباس من أدعياء الإسلام قد جعل الأعداء ينظرون إلى المسلمين نظرةً خاصةً، ويضعونهم في موقعٍ مُتأخّرٍ، على حين أن الإسلام يأمر بالنظافة، ويجعلها من الإيمان، ويحثّ أتباعه على التجمّل والتطيّب، ولبس النظيف، وإن التأمّل في الفرائض والواجبات والمستحبّات في الإسلام ليجعل المرء المُنصف يُدرك حرص الإسلام على النظافة، فالوضوء كل يومٍ خمس مراتٍ، وغسل اليدين قبل الأكل وبعده، وعند الاستيقاظ من النوم، والغسل، والسواك، ولبس النظيف. . . . . . . كل هذا يجعل من يقوم بها في غاية النظافة، إضافةً إلى ما يأمر به من نظافة الطريق و. . . . يقول تعالى: ﴿يا بني آدم خُذوا زينتكم عند كُلّ مسجدٍ وكُلوا واشربوا ولا تُسرفوا إنه

لا يُحبّ المسرفين. قُل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الـرزق، قُل هي للذين آمنـوا في الحياة الـدنيـا، خـالصـةً يـوم القيامة، كذلك نُفصّل الآيات لقومٍ يعلمون﴾[1].

٥ ـ السهر:

يحثّ رسـول الله ﷺ المسلمـين عـلى النـوم المُبكّـر، بعـد صـلاة العشـاء، إلّا إن كـانت هنـاك حـاجـات أسـاسيـة، ويحضّ عـلى الاستيقاظ المُبكّر، فإنّ الخير في البكـور، حيث يستطيـع الانسان أن ينتج الكثير للراحة التي أخذهـا، والجو المنـاسب، والهدوء المـلائم. غير أننا خالفنا هذا في كل جـانبٍ، حيث أصبح المسلمـون يقضون الليـل سهراً عـلى اللعب، أو الأحـاديث الفـارغـة، أو المسلسـلات المائعة التي تبثّهـا أجهزة الإعـلام، والتي تستمرّ إلى مـا بعد منتصف الليـل. ويصحو المسلمـون متأخّـرين، إما أنهم قـد أضاعـوا صلاة الفجـر، وإن لم يضيعوهـا فإنهم يعـودون للنوم بعـدها، ويقـومـون كسالى لا يستطيعون إنتاجاً، ولا يُقدّمون مردوداً. وليس هناك ـ مع الأسف ـ من مُنبّـهٍ ولا آمـرٍ بـالمعـروف، ولا نـاهٍ عن المنكـر، ولا رادعٍ ، بـل إنّ الذي بيـده الـردع هـو الـذي بيـده وقف الـبرامج الإعلامية في وقتٍ مبكرٍ.

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان ٣١ و٣٢.

وإن الشعوب العاملة، والدول الواعية لتُدرك هذا تماماً، وتتوقّف عن البثّ الإعلامي في وقتٍ مناسبٍ جداً حتى تُعطي الشعب وقتاً كافياً للراحة.

وليت قومي يعلمون ما في تعاليم الإسلام من خيرٍ لهم، ومنها النوم المبكر لأخذ الراحة الكافية، ومنها الاستيقاظ المبكر للحصول على الإنتاج.

٦ ـ إضاعة الوقت:

إن الوقت أثمن شيءٍ في حياة الإنسان، وقد أمرنا رسول الله ﷺ بالإفادة منه: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»(٢).

ولكننا لم نتقيد بهذه التعاليم، فابتعدنا عن عقيدتنا، وفي الوقت نفسه أضعنا وقتنا في السهر في الملاهي والمقاهي التي ألمحنا عنها في الجانب الاقتصادي فقلّ الإنتاج وضعف المردود، ووُجدت الحاجة، وكنا فيما نراه من مواقع مُتأخّرةٍ.

---

(٢) رواه الترمذي في باب القيامة.

٤ - الجَانِبُ الفِكْرِيُّ

لم تكن هزيمة المسلمين أمام أعدائهم ماديةً فقط، ولو كان ذلك لسهُل الأمر إذ يُمكن الاستعداد، ورفع الروح المعنوية، والتحرّك من جديدٍ، والخوض معهم في جولةٍ ثانيةٍ، واستعادة ما فُقد، بل والتقدّم، ولكن أصاب المسلمين هزيمة نفسية نتيجة الهزيمة العسكرية.

لقد غدا كثير من المسلمين يرون أن ما في الغرب كلّه صحيح، إذ حصلوا على آرائهم بالتجربة والتطبيق، وعلى نظرياتهم بالعلم والمختبر، وعلى أفكارهم بدراسة الواقع والمجتمع، وعلينا تقليدهم في كلّ شيءٍ إذا أردنا الحصول على ما حصلوا عليه، والوصول إلى ما وصلوا إليه، وأخذت الدعوة إلى ذلك داخل المجتمع الإسلامي، وابتدأ التقليد بالمظاهر باللّباس، والاختلاط، وقلّة الحشمة وما يتبع ذلك من أمورٍ في المأكل والمشرب، والقشور عامةً.

في هذه الأثناء كان الأعداء يقومون بدراساتٍ عمليةٍ على المجتمع الإسلامي، ويطرحون الأفكار والنظريات التي تُبعد

المسلمين عن عقيدتهم سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وفكرياً، وعقيدةً، وتجعلهم أخيراً يتخلّون عن إسلامهم، وبذلك يخلو الجوّ للصليبيين، وينفتح أمامهم المجال للسيطرة على العالم كلّه فيستغلّونه أرضاً وسكاناً، ويبثّون الزيغ والانحراف اللّذين يظنّونهما عقيدةً يُطلقون عليها اسم النصرانية، وهذه أُمنيتهم في الحياة، وبذا يُحقّقون مُهمّتهم.

لقد طرحوا فكرة الوطنية لترسيخ الإقليمية في العالم الإسلامي، وتعميق جذورها، والتعصّب لها، لتجزئة المسلمين في كلّ إقليمٍ إلى مواطنين ممن تعود أصولهم إلى هذا الإقليم، وأجانب من المسلمين الذين قدموا إليه، وليس الهدف من دعوى الوطنية تجزئة البلاد أرضاً فقط، وإنما تفرقة المسلمين سكاناً أيضاً، وبذر روح الحقد بينهم بهذه الفكرة. وأسرع الكثير ممن ينتمي إلى الإسلام بقبول هذه الفكرة لأنها من فكر الغرب حيث العلم والحضارة، والرأي السليم، ولأن تبنّي هذا الرأي قد يوصل المنادين به إلى سدّة الحكم، ويرفعهم إلى القمّة لرضاء المستعمرين عنهم ما داموا يحملون أفكارهم، وأصبحوا مُؤهّلين للإدارة نتيجة أفكارهم التحرّرية، وهكذا كان، وإنّ معظم التنظيمات السياسية التي قامت قبل الحرب العالمية الثانية قد حملت هذا الاسم، ومُعظم الآراء تبنّت هذه الدعوة.

وطرح الأعداء فكرة القومية لتقطيع أوصال الأُمّة، وتركها أشلاءً حسب الجنس والعرق، وأسرع المهزومون نفسياً وحملوا هـذا الرأي فهو من الغرب، وعصر القوميات في أوربا هو عصر النهضـة حسبما تعلّموا، وحسبما قُرّر لهم ممن وضع المنـاهج فلماذا لا يُقبلون عليـه؟ وفيـه جمع لشتـات الجنس الواحـد، وتعصّب كـلّ قـومٍ لقـومهم، وكـانت الصراعات بـين مجموعـات الأُمّة، وبـين شعوبهـا. وكانت مُعظم التنظيمات السياسية التي قامت في أرجاء العالم الإسلامي بعد الحـرب الثانيـة تحمل هـذا الاسم، فهـو دليـل التقـدّمية كـما زعم الغرب، ودليل الوعي كما ادّعى المستعمرون، وحمله يُقوّي المركز في الـداخل حيث يلتفّ حـوله المهـزومون فكـرياً، والعـامّـة ممن يُمكن خداعهم. وإضافةً إلى هذا فإن تبنّي القوميـة إنّما هـو السير في ركب الحضارة التي تعمّ بلاد الغرب، والذين ساروا في فلكها.

وطرح الأعداء فكرة الاشتراكية للتجزئة داخل الإقليم الـواحد، وفي الشعب الواحد، حيث لا يكفي تجزئة الأرض، والأُمّة، ولكن لا بدّ للأعداء من أن يعملوا على تجزئة الصفّ، ليحـول ذلك دون أيّ تحـرّكٍ إقليميٍ أو شعبيٍ، فلربمـا انـطلق أهـل إقليمٍ في وجـه المستعمـرين وأفكـارهـم، ووثب شـعب يـتحـدّى الـصليـبيـين ومُخطّطاتهم، لذا كان لا بدّ من إيجاد خلافٍ بـين النفوس، وتقسيمٍ في المهنـة، وتبـاينٍ في الآراء، وهـرع كثـير ممن ينتمي إلى الإسـلام

لقبول فكرة الاشتراكية ما دامت من البلدان الأجنبية صاحبة الحضارة، ومركز العلم التجريبي، وكان كثير من التنظيمات السياسية في العالم الإسلامي أن حمل هذا الشعار الذي خلف العنوان القومي، وأخذ يحلّه محلّه تدريجياً في أواخر القرن الرابع عشر الهجري. انقسم الناس في كل مصرٍ نتيجة تقبّل الفكرة الاشتراكية إلى عمالٍ، وأصحاب عملٍ، وإلى فلاحين مُزارعين، وأصحاب أرضٍ، وإلى مُستأجرين ومُلّاكٍ، وإلى أغنياء، وفقراء، وإلى كادحين، ومُستغلّين و. . . . . وإلى تقدّميين وهم الذين قبلوا الأفكار والآراء الغربية، وحملوها وتبنّوها دون مناقشةٍ أو بحثٍ، وإلى رجعيين وهم الذين وقفوا أمام ما جاء من الغرب موقف الريبة، فلم يقبلوا شيئاً إلا بعد دراسةٍ، ولم يأخذوا أمراً إلّا عن قناعةٍ.

وأشاع الأعداء نظريات التطوّر التي قال بها لامارك، وداروِن لهدم العقيدة بمعارضة قصّة الخلق التي وردت في كتاب الله بما تطرحه هذه النظريات. كما روّج الأعداء لآراء فرويد، وماركس، وغيرهما، وعدّوها آراءً صحيحةً في المجتمع للغرض نفسه لتقويض المجتمع القائم على العقيدة، ونسف الأفكار الراسخة لدى المسلمين.

وروّج المستعمرون لأنظمتهم المعروفة بـ (الديمقراطية) لبقاء

الصراع بين الفئة الحاكمة والفئة المعارضة، ولنقل هذا الصراع إلى الأوساط الشعبية ليبقى الخلاف دائماً، والنزاع قائماً، ولإمكانية اقتناص الأفراد، واحتواء آخرين، والرغبة في مدّ اليد للحصول على التأييد، والوصول إلى القمة، والخلاصة بقاء الشعب في غليانٍ وتناحرٍ، لأنّ نجاح الديمقراطية في الغرب ليس معنى ذلك نجاحها في أمصار المسلمين لاختلاف المجتمعات، والتباين في المفهومات، إضافةً إلى الفرق بين القوي المتحكّم، والضعيف المغلوب على أمره، وبين الشعب الذي يرى عزّه في دعم حكومته التي تُمثّله سواء أكان من الفئة الحاكمة أم المعارضة، والشعب الذي يُريد تقويض حكومته لأنها لا تُمثّله، وإنما تُمثّل فئةً قليلةً مُستبدّةً، وبين المنتقد للحكم، وبين الناقم عليه، وبين القانع وبين الظامىء إلى التسلّط والنهب، وبين الراضي، وبين الحاقد، وبين من لا يوجد وراءه من يدفعه، وبين فئةٍ يوجد من يُحرّكها دائماً، وإن ما يقع في بلاد المسلمين من ظلمٍ وخلافٍ إنما يعود إلى أولئك الذين يُنادون بالديمقراطية، ويعملون لتطبيقها في بيئةٍ غير بيئتهم، لتكون لهم دائماً اليد العليا، ويستطيعون اللعب باستمرارٍ، وتنفيذ المخططات وتمريرها.

وروّج الأعداء للنظام الجمهوري لا حبّاً به، ولا كرهاً بالنظام الملكي فإن كثيراً من بلدان الغرب يقوم فيها النظام الملكي مثل:

انكلترا، وبلجيكـا، وهـولنـدا، وإسبـانيـا، والـدانمـارك، والسـويد. . . . . . وإنمـا إبعاداً عن نـظام الخلافـة الذي يبقى فيـه الخليفـة مدى الحيـاة إلاّ أن يُحدث تغييراً في منهجه، أو يُبـدي كفراً بواحاً، أو يطرأ طارىء عـلى عقله. ورغبةً في إبقـاء الصراع قائـماً، فكلما ارتقى المرء درجةً رغب في أعلى، ولا يمنع ذلك من أن يطمح في رئاسة الجمهورية، بل إن كثيراً من الأقـاليم وصل الشبـاب فيها في مرحلةٍ إلى أن يُفكّر كـل واحدٍ منهم في ذلـك المنصب عن طريق القوة، وهو لا يزال في الثانوية العـامة، حيث يُفكّـر بالانتسـاب إلى الكليات العسكرية، ومن هذا الباب يدخل التاريخ. ووصل الأمـر بـالرعيـة إلى أن أصبحت تُفكّـر أن النـظام الجمهـوري هـو أقـرب الأنـظمة إلى الإسـلام ما دام الـرئيس ينتخب انتخـابـاً، وتـظنّ أن النظام النيابي أقـرب النظم إلى الإسـلام ما دام الشعب يختـار مُمثلين عنه، ولم ينتبه النـاس إلى أن النظام الإسـلامي نظام قـائم بذاتـه لا يمتّ إلى بقيـة الأنـظمـة بصلةٍ، وإن التقى مـع إحـداهـا في بعض الصفات فإنه يختلف اختلافـاً بيّناً في جـوانب كثيرةٍ أخـرى، ويتفق مع الأنظمة المباينة لها تماماً في صفاتٍ ثانيةٍ. فالإسلام هو الإسلام، ومنهجه يشمل جوانب الحياة جميعهـا، ولكلّ جـانبٍ نظامـه الخاص الذي يختلف عن بقية الأنظمة.

فمن تـرك نظام عقيـدته التي يُؤمن بهـا، ويدّعي أنـه يعتزّ بهـا،

وأخذ نهج أنظمةٍ فاسدةٍ وضعيةٍ، وأقلّ ما يقال فيها أنّها أنظمة أعدائه الذين يُحاربونه، ويعملون على إبادته، وتقويض عقيدته، ودعا إلى ذلك، أليس في هذا غرابة؟ إنّ هذا التصرّف ليجعل صاحبه تبعاً لغيره، يجري خلف خصمه الحقيقي، ويلهث، وهذا ما يضعه في آخر الركب البشري، حينما يوضع تصنيف للمجموعات الإنسانية.

التدريس:

لقد وضع المستعمرون الصليبيون المناهج التعليمية للبلدان التي سيطروا عليها، وركّزوا على تلك الأفكار التي سبق التي تكلّمنا عنها، ونتيجة التدريس الدائم أصبحت أساسيةً ومن المسلّمات عند الأساتذة لكثرة ما درّسوها، وكرّروها، وعملوا على ترسيخها في أذهان الطلاب الذين أخذوها عن مُعلميهم على أنّها بدهيات، لا داعي للحوار والمناقشة فيها، وعندما بدأ بعض المسلمين يصحون من رقدتهم وطرحوا المفاهيم الإسلامية، وجدها العامة جديدةً عليهم، ورآها المتفرنجون غريبةً كلّ الغرابة، لذا وقفوا في وجهها، وبقيت أفكار الغرب هي السائدة في المناهج تُظلّلها الروح الإقليمية، وتلفّها الانفصالية، فترسّخ العصبية بكلّ صورها ومعانيها، وتُؤكّد على النزعات المعادية للدين، والنظريات المُخالفة للعقيدة من غير أن تبحث في شؤون الدين أو تُعاديه صراحةً،

ودون أن تتعرّض للعقيدة أو تُحاربها مباشرةً حتى لا يكون ردّ فعلٍ من قبل المسلمين، فيُعلنون سخطهم على هذه المناهج، ويعملون على تغييرها، ووضع بدائل عنها تنبع من عقيدتهم، وتنسجم مع البيئة التي تُطبّق فيها، والمجتمع الذي يتلقّاها، والأُمّة التي تتبنّاها.

انحسر المدّ الاستعماري الصليبي العسكري عن كثيرٍ من البلدان الإسلامية، ونالت استقلالها السياسي حسب الاصطلاحات السائدة، ولكن - مع الأسف - بقيت مناهجه هي المعمول بها، وأفكاره هي التي تُلقّن، ونظرياته هي التي تُدرّس، وثقافته هي التي تنتشر. بل إن الأمصار التي لم يدخل إلى أرضها الاستعمار الصليبي بجيوشه، وبقيت أرضها طاهرةً من رجسه قد أخذت هذه المناهج من أشقّائها، وجلبت المدرسين إليها ليُلقّنوا أبناءها ما تعلّموه، ويُطبّقوا تلك المناهج على نشئها. والأكثر خطراً من ذلك، والأدهى وأكثر مرارةً أنّ هذه الأفكار كانت تُدرّس بلغة المستعمر الصليبي نفسه بحجة الاصطلاحات العلمية، وعالمية اللغة، ولغة العلم التجريبي، ولغة واضع العلم، ومن هذه الحجج الواهية بل السخيفة الماكرة، وإذا كانت تُطرح تحت طلاءٍ إلاّ أنّها تدلّ على غباءٍ كاملٍ، وغفلةٍ تامةٍ، أو جهلٍ وهزيمةٍ نفسيةٍ وفكريةٍ شاملةٍ. وخرج النشء نتيجة ذلك متفرنجاً لغةً وفكراً، جذوره في أرضٍ، وفكره وهواه في أرضٍ، تشدّه أرض آبائه لارتباطه بها، ولكنه يرى فيها

البؤس، والتخلّف، والرجعية، ويندفع تلقائياً نحو من ارتبط بفكره في داره حيث يـرى الحريـة، والعلم، والفكر، والتقـدّم، فهو تبـع لهواه، يسير وراء من ارتبط بفكره به، يسير تابعاً، مُسخّراً، مُقلّداً، مُحتقراً. أليس يكفي هذا ليجعله في آخر موقعٍ تعرفه البشرية.

طُرحت هذه الأفكار الاستعمارية ضمن المواد الاجتماعية عـامةً، وفي ثنايا بعض العلوم الأُخرى. طُرحت في التـاريخ، والجغـرافيا، والاجتماع، والتربيـة، وعلم النفس، وعلم الاقتصاد، وإن كـان لا يخلو من هـذا علم آخـر. ويُـطرح عـلى سبيـل المثال في التـاريـخ الخلافات في التاريخ الإسلامي، وموضع النزاعـات، والعصبيات، والتأكيد على القوميات، وأن سبب التأخّر كان نتيجـة سيطرة بعض الشعوب الإسلامية على الأمة، ويكون التزلّف، وحقد بعضهم على بعضٍ، وتُـطرح المبـالغـة الكبـيرة في أعـداد القتـلى عنـد قيـام الصراعـات، وأعمال التشفّي والتنكيـل التي وقعت، وكل الهنـات، ومواضع الزلّات، ومواقع الإساءة تُضخّم، وتُبرز بشكـلٍ فاضحٍ، حتى يصبح الشاب المسلم يائساً مُتشائماً ينظر إلى ماضي أُمّته العظيم بعين الازدراء والامتهان. أما تاريـخ الغرب فيُبحث من بـدء عصر النهضـة، وتُقلب المسـاوىء إلى حسنـاتٍ حيث تُمسح مثـلاً آثـار الصليبيـة من قتلٍ وحقـدٍ، وظلمٍ، وإبادةٍ للمسلمـين مما يُسمّـونـه الكشوف الجغرافية، ومن استعمار البلدان، ويجعلون من الاستعمار

رمزاً لنشر العلم، وبثّ الحضارة، والأخذ بأيدي سكان البلدان إلى الأمام. ويُركّزون على موضوع التقدّم العلمي، والتطوّر الصناعي، والنشاط المادي، وما يُطلقون عليه اسم «حرية»، ولا يُشيرون أبداً إلى المخالفات، وأعمال الفحش، ويُوسّعون في تاريخ قادتهم وأبطالهم من النواحي الإيجابية ويتركون كلّ السلبيات، فنابليون بونابرت مثلاً يذكرون حروبه، وانتصاراته، وينسون مُعاملته القذرة لخصومه عند انتصاره، ومُعاملته البشعة لجنده عند الهزيمة، وعشقه، وغرامياته، وتسلّط عشيقاته على الإدارة، والجيش، والناس، وهتكه للأعراض. والمهم عندهم أن يبقى تاريخ نابليون عظيماً ليعظُم في أعين الآخرين من أمثالنا، وتصغُر أبطالنا في أعيننا، وكذا بقية أبطال الغرب. والأكثر غرابةً أن مناهج كثيرٍ من الأمصار الإسلامية تعدّ بدء نهضتنا الحديثة من قدوم الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت إلى مصر حيث عُرفت الطباعة، وانتشر العلم، وتوسّعت الثقافة. على حين أن مجيء هذه الحملة كان بدء الفساد، وضعف النفوس، وهزيمة النفس، وانتشار الخداع، وشيوع الكذب، لقد جهر الناس بشرب الخمور بعد أن شجّعهم الفرنسيون، وهم المتسلطون، وتجرّأ الشعب على التعدّي على النساء بعد أن مارسه المسيطرون بأنفسهم فاعتدوا على نساء المماليك، ودفعوا السكان للقيام بمثل هذا العمل، وانتشر الكذب

والخداع باسم السياسة في حملة نابليون على الشام، وإظهار إسلام الكولونيل سيف باسم سليمان الفرنساوي. كما تجرّأ الناس على أهل العلم بعد أن أذلّهم المستعمرون، وأخذوا بنشر الشائعات ضدّهم، وافتراء الكذب عليهم. أما الطباعة فالواقع أن الأوربيين هم الذين أخذوها عن المسلمين منذ أيام الحروب الصليبية، حيث عمل أسيران من الصليبيين في دمشق في مطبعةٍ[1]، ولما رجعا إلى بلديهما نقلا فكرة الطباعة إلى هناك. وإن دراسة مادة التاريخ في كثيرٍ من أمصار العالم الإسلامي حسب المناهج التي وضعها المستعمرون لتجعل الشاب المسلم العادي الذي لم يُنشّأ تنشئةً إسلاميةً ينظر إلى تاريخه نظرة أنه قزم أمام تاريخ الغرب العملاق، ويكفي هذا أن يُصاب بالهزيمة النفسية، ويسعى جاهداً ليسير وراء الغرب، ويكون في المؤخّرة. ويجب ألاّ ننسى أبداً أن تاريخنا الإسلامي قد شُوّه كثيراً بما بثّه الرافضة قديماً، وبما روّج المستشرقون من شائعات ضدّه حديثاً.

أما الجغرافيا فتهتم المناهج التي وضعها المستعمرون والتي لا

---

(١) لم يترك المسلمون الرجل داخل السجن سواء أكان مسلماً أم كافراً، مسجوناً مخالفاً أم أسيراً دون عمل، يستهلك ولا ينتج، وإنما كان يُوفّر العمل لكل إنسانٍ قادرٍ على أيّ صنعةٍ، أو على الحركة، ويعطى عملاً مناسباً ليكون كل فردٍ منتجاً، ويُقدّم للأمّة ما يُفيدها.

تزال سارية المفعول على دراسة الدول العظمى، وإمكاناتها الضخمة، وإنتاجها الوفير، ومردودها الكبير، وصناعاتها المتطوّرة، والتطوّر العلمي، هذا إضافة إلى دراسة الإقليم الخاص. وينتج عن هذا شيئان، أولاهما: أن الفرد المسلم لا يعرف عن الأمصار الإسلامية الأخرى شيئاً، على حين يعرف عن الدول العظمى كل شيءٍ. فأهل المشرق لا يعرفون شيئاً عن المغرب، وأهل المغرب لا يعرفون شيئاً عن المشرق، ولو سألنا مثلاً طلاب المرحلة الثانوية في غربي آسيا وإفريقية المسلمة كلها عن أندونيسيا فنصل إلى نتيجة، أنهم لا يعرفون سوى اسم العاصمة «جاكرتا»، وأن البلاد مجموعة كبيرة من الجزر، وربّما عرف بعضهم اسم «جاوه» و «سومطرة» إن كان من الأذكياء. أما لو سألنا طلاب المرحلة الدراسية نفسها في المشرق عن المغرب فإنهم لا يعرفون سوى أسماء بعض الأمصار، وبعض أسماء عواصمها، ولا نجد منهم واحداً يعرف الأمصار كلها وعواصمها، على حين يعرف الطلاب في المشرق والمغرب على حدٍّ سواءٍ الكثير من مدن، وأنهار، واقتصاديات الدول الكبرى. وبالتالي لا يعرف المسلمون عن مُشكلات إخوانهم في الأمصار الأخرى، وما يُعانون، وما هي السُّبل الأساسية لدعمهم، والعمل على الارتباط بهم. مع العلم أن المناهج حريصة كلّ الحرص على ترسيخ فكرة الإقليمية والانفصالية حتى لغدا سكان كلّ إقليمٍ لا

يـرون ضرورةً لاهتمامهم خـارج حدود إقليمهم نتيجـة زوال فكـرة الأُمّة المسلمة، بل غياب فكـرة وحدة الشعب العـربي هذا بـالنسبة إلى البلدان العـربيـة. عـلى حين يـرون ضرورة الاهتـمام بـالـدول الكبرى كنوعٍ من التقدّمية، والعلم، والثقافة...... أمـا النقطة الثـانية الأسـاسية التي تمـلأ نفس المسلم حسـرةً بـدراستـه لمنـاهـج الجغرافيا الموضوعة له فهي الصَّغار الذي يحسّ به، والذي تنتج عنه الهزيمة النفسية عندما يقارن إمكانات مصره المتـواضعة والتي أحيـاناً تكاد تنعدم أمام إمكانات إحدى الدول الكبرى. فـأيّ مواقـع يحتلّ المصابون بالهزيمة النفسية؟.

أما مواد التربية، والاجتماع، وعلم النفس فتُدرّس منـاهجنا آراء الغربيين، ونظرياتهم، وكـأنها مُسلّمات، وحقائق ثـابتة، وبـالتالي لا تتعـرّض إلى شيء عن المسلمين، وآرائهم، ونـظرياتهم، وكـأنهم لم يسكنوا هذا العالم في يومٍ من الأيام، أو لا يُذكرون في هذا المجـال أو غيره أبداً.

وفي الاقتصاد فتُدرّس الأنظمة الاقتصادية المعـروفة في العـالم من رأسـماليـة، وشيـوعيـةٍ، واشـتراكيـةٍ، ومُـوجّهـةٍ، وآراء واضعيهـا، ونظريات مُفكّري الغرب، أمـا النظام الإسـلامي فلم يتعرّض لـه، وكـأنه لا نـظام للاقتصـاد في الإسلام، أو كـأن المناهـج لم تـوضـع للأمصار الإسلامية، وإنما لبلدانٍ كافرةٍ، جاحدة بالإسلام، مُعاديةٍ

لأهله، تريد إذلالهم بعدم الاعتراف أو السماع بنظامه، وأما نحن فالغريب منا، أن مناهجنا أجنبية، وُضعت من قبل أعدائنا، تُحارب ما نُؤمن به، وهي غير صالحةٍ لأنها وضعية من قبل أناسٍ لهم مصالحهم، ولهم أهواؤهم، وضعت بما يُحقّق لهم هذا، ومع هذا نقبلها، ونُروّج لها، ونُطبّقها، ونتخلّى عمّا جاء من خالقنا العليم بما يصلح لنا، الخبير بشؤوننا، المُطّلع على سرائرنا، ثم نترك ما يُوافقنا، وينسجم مع فطرتنا. ومن كان هذا شأنه فلا شكّ أنه سيحتلّ مواقع مُتأخّرةً جداً.

اللغة:

لم يكن التدريس فقط بلغة الأعداء وإنما استشرى ذلك إلى أوساط المجتمع نتيجة الهزيمة النفسية والخواء الفكري، فمن تحدّث بين الناس بكلماتٍ أجنبيةٍ تعالى عليهم، وعدّ نفسه مُثقّفاً، ورُبّما نظر إليه كذلك من كان دونه صغاراً وضعةً. ودخلت كلمات أجنبية اللهجة العامية حتى زادت على النصف، وغدا المرء لا يفهم على كثيرٍ من مُحدّثيه لأنّ نصف حديثهم بكلماتٍ أجنبيةٍ، وربعه بلهجةٍ عاميةٍ محلّيةٍ لا يعرفها إلّا أهلها، وما بقي بالعربية، وهو ما يتفاهم به العرب، وغدت اللافتات على المحلات لا تكتب بالعربية وحدها، بل على الأقل بلغةٍ أخرى، إن لم يكن بلغتين اثنتين، دلالةً على الرقي والتقدّم، حتى بائع الفلافل يجب أن يكتب على

محلّه المتواضع بلغةٍ أجنبيةٍ مُسايرةً للمجتمع، ودلالةً على العلم، فلا تظنّوا أني بائع فلافل لستُ مُتعلّماً، بلى، وهذه علامة ذلك. وربما تعدّى الأمر هذا فكتب أحدهم اللافتة بالأجنبي، ولكن بحرفٍ عربي، ظنّاً منه أن هذا هو الاسم العربي، ثم كتب بجانبها باللغة الأجنبية بالحرف اللاتيني، يا للمهزلة!!! ويا للضعة!! ويا للضياع!!! ويا للهزيمة النفسية المنكرة. فأيّ موقعٍ نحتلّ بهذا الذي نحن فيه. إن محلّ إصلاح أُطر السيارات لا يعرفونه إلاّ «بنشر»، وقائمة الأسعار «فاتورة»، وقائمة الأصناف «ليستا»، والنماذج الهيكلية «كاتالوج»، وقطع الغيار «اكسسوار»، والهاتف «تلفون»، والحقيبة «شنتة»، والدفتر «بوك» والشركة «كو» و.....

فأيّ موقعٍ تحتلّ أُمّة هذا وضعها؟..

٥ ـ الجَانبُ الإداريُ

عندما احتلّ المستعمرون الصليبيون الأمصار الإسلامية كان المسلمون على درجةٍ من الجهل وعدم المعرفة، وكان الدخلاء يُريدون أيضاً السيطرة على البلاد لذا فقد تسلّموا الكثير من المناصب الإدارية العليا والوظائف، كما سلّموا أعوانهم من نصارى البلاد المناصب الكبيرة والوظائف الأخرى. فلما جلا المستعمر عن البلاد، أخذت الحكومات الوطنية تعمل على تسليم السكان تلك الوظائف التي أصبحت شاغرةً أو المناصب المستحدثة، ولم يكن من أبناء البلاد بعد من يتقدّم لملء تلك الشواغر، وإن وُجد المتقدّمون لكنهم غير مؤهلين، فكانت الحكومة تستحث للعمل من تراهم مُؤهّلين، فيأتي بعضهم، وتحرص عليه، فلا رقابة على دوامه، ولا محاسبة، ولا عقوبة، فكان الواحد لا يأتي إلاّ مُتأخّراً، ويذهب قبل انتهاء الدوام بمدةٍ، وأثناء حضوره قلّما أن يعمل بل يضيع وقته في قراءة الصحف التي تُؤمّنها الدائرة له، وفي شرب الشاي والقهوة، والحديث مع الزملاء. . . وهذا أيضاً شأن الأمصار التي لم تتقدّم

في وقتٍ واحدٍ مع أشقّائها من الأمصار الأخرى، ولكنها تطوّرت متأخرةً وفجأةً، فكانت أن اضطرت أن تستعين بأشقائها الذين سبقوها فاستقدمت منها المدرسين، والموظفين، والعمال فأخذوا أماكنهم، وبدؤوا بالعمل المترتّب عليهم، أما أهل البلاد فلم يُقبلوا على الوظائف حيث لا يرغبون بها في بداية الأمر، ولأنهم لم يتمرّسوا على ذلك بعد، وكانت الدوائر تحرص على تسليمهم المناصب، فتجرّهم إلى العمل جرّاً، وتُرغّبهم بالراتب الجيد، والمنح، والأعطيات، والصحف للقراءة في المكاتب أثناء العمل، والمكلّفين بخدمتهم في تقديم الشاي، والقهوة، والعصير...... فأقبل الكثير منهم على العمل، وملء الشواغر في المناصب والوظائف، إلاّ أنه لا توجد لديهم رغبة أكيدة في العمل فبقيت سمة الكسل والتواكل في العمل، وقد تعوّدوا على الرفاهية، فلم يعملوا، واستمرّت اللامبالاة عندهم، فلم يشعروا بالمسؤولية، ولم يُقدّروا الواجب الملقى على عاتقهم.... لذا لا يُمكنهم الاستغناء عن المستقدمين الذين يجب أن يقع على عاتقهم كل شيءٍ، المناصب الكبيرة لها مستشارون، والوظائف لها من يشغلها، والعمل له من يقوم به. والسيارة لها من يقودها، وكذا البيت فهناك الخدم للطبخ، والغسل، والكي، والتنظيف، والخياطة، والتجميل.... ولكل عملٍ مهما كان صغيراً أم كبيراً، خطيراً أم حقيراً، يحتاج إلى

اختصاص أم لا يحتاج له من يسدّه من خارج البلاد....... أما السكان فليس لهم من عملٍ سوى إضاعة الوقت بالأمور الفارغة، وإصدار الأوامر للمستقدمين والخدم. وهذا يعني أن عجلة العمل في البلاد لا تتحرّك إلاّ بالغرباء فإن تركوا العمل توقّف الإنتاج، وتعطّلت الدوائر، والسكان لا يُبالون ما دام الخير يتقاطر ولله الحمد.

إن أُمّةً لا ينتج أبناؤها بأنفسهم، ولا يشغلون وظائفهم بأنفسهم، ولا يُشرفون على تربية أطفالهم بأنفسهم، ولا يُؤدّون أعمالهم إلاّ عن طريق المستقدمين والخدم لا يمكن أن يحتلّوا إلاّ موقعاً متأخّراً، وإن أسعفتهم أموالهم إلى حين، وظنّوا أنها تدفعهم نحو الأمام إلى طريق التقدّم والحضارة، إلاّ أنهم واهمون.....

النظام:

إنّ مرحلة الجهل، والفوضى التي مرّت بها معظم أمصار العالم الإسلامي قد تركت عندهم حالة من اللامبالاة وعدم التقيد بالنظام، وعدم النظافة، وعدم الشعور بالمسؤولية، وعدم تقدير النتائج أو بالأحرى استمرّت عندهم مرحلة الجهل وإن تعلّموا، وبقيت عندهم الفوضى وإن وُجد نظام.

نجد أن الكثيرين لا يهتمّون مثلاً بنظام المرور إهمالاً، ويظنّون

أنه لا علاقة له بحضارة الأُمّة، وربما عدّ بعضهم خرق هذا النظام رجولةً وبطولةً، وقد يعتقد بعضهم الآخر أن مخالفته لا علاقة لها بالدين، ما دام لا يرتكب أمراً محرّماً، ونسي أن هذه المخالفة قد تُسبّب فقدان حياة الآخرين، أو إلحاق الضرر بهم على الأقلّ مادياً ومعنوياً وهو أمر محرم، كما نسي هؤلاء أن تطبيق النظام من الدين إن لم يكن فيه ما يُخالف الدين.

ومثل نظام المرور بقية الأنظمة التي تضعها الدولة لتُساعد المواطنين على تأمين حاجاتهم، وتيسير أمورهم، والمحافظة على صحتهم....

إنّ الذين يخرقون النظام إنما يُنظر إليهم من الناس كافةً نظرة سوءٍ، ويضعونهم في مُؤخّرة القافلة البشرية لتعدّياتهم، والواقع أنهم هم الذين يُريدون لأنفسهم أن توضع في هذا الموقع المتأخّر، فيُقال عنهم: أشرار، غير نظاميين، لا يُبالون بالنتائج، طائشون، فوضويون، مُخالفون، مراهقون و.......

وإذا كان النظام لا يردعهم، فإن النظام والمشرفون عليه، لا يختلفون عن هؤلاء الطائشين، وهم السبب عن كل ما يحدث من نتائج، وهم المسؤولون عن الفوضى، وإن تصرّفهم هذا هو الذي يضعهم حيث يُصنّفهم العاقلون في آخر الركب.

سَبيل التقدّم

كي نستطيع تغيير الموقع المتأخّر الذي نقف فيه، والذي وضعنا الأعداء فيه بل ارتضيناه لأنفسنا ـ مع الأسف ـ وربما نفخر بذلك أحياناً دون أن ننظر إلى موقعنا ومن غير أن نلتفت إلى ما حولنا. إن التغيير لا يكون إلا إذا بدأنا نغرس في نفوس النشء مفاهيم جديدةً تنسجم مع عقيدتنا وتتفق مع ما نريد أن تنشأ عليه الأجيال القادمة، وهذا لا يكون إلا بتغيير المناهج القائمة التي صاغها الأعداء عندما سيطروا علينا بالقوة، وإن لم يكونوا قد دخلوا بعض أمصارنا بالجنود فقد غزونا بالفكر، وتغلّبوا علينا بالمخططات، وتفوّقوا بالعمل، فجرّوا إليهم أفراداً منا، واحتووا أُناساً، وغدت حصوننا مُهدّدةً من الداخل، وسلّطوا علينا من رغبوا، وكان بإمكانهم التغيير كلما أرادوا حيث امتلأت حقائبهم بمن جرّوا إليها، وحشوا فيها. . . . وهذا الواقع الذي نُريد تغييره بإذن الله. ولن يكون التغيير إلّا بتغيير ما في النفوس قبل كلّ شيء وهذا الذي نسعى إليه يقول تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما

بأنفسهم وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال﴾[1].

١ ـ **الجانب العلمي**: يجب أن يكون التعليم باللغة العربية والاهتمام بذلك، مع مراعاة:

١ ـ عدم تعليم أية لغةٍ أجنبيةٍ في المرحلة الابتدائية إلى جانب اللغة العربية.

٢ ـ تدريس مزايا اللغة العربية وأهميتها.

٣ ـ لا تدرس مادة من المواد في أيّة مرحلةٍ من المراحل بلغةٍ أجنبيةٍ، وإنما تترجم إلى العربية من اللغات الأخرى الكتب الضرورية والحديثة الصدور لمواكبة العلم وتطوّره.

وتدوّن كتب التاريخ من منظورٍ إسلاميٍ، ويعهد بالكتابة فيها إلى مُؤرّخين، ومُفكّرين، ومُربّين إسلاميين، ونُبعد الكتب التي حملت اسم الإسلام وسجّلها رجال وإن كانوا ينتمون إلى الإسلام إلا أنهم لا يعرفون شيئاً عنه فجاءت مدوّناتهم جامدةً باهتةً بعيدةً عن الإسلام كبعدهم عنه. كما جاءت سرداً لأحداثٍ لا نعرف من رواها، ولا من صاغها، وربما كان أكثرها يحمل دسّاً وافتراءً بذكر أحداثٍ لم تقع، وأقوالٍ لم ينطق بها من نُسبت له، كما يجب التركيز

---

(١) سورة الرعد، الآية ١١.

على الاستعمار، وأسبابه، وأهدافه، والدافع الصليبي، وأساليبه، ومُخطّطاته، وما فعله في بلاد المسلمين. وينبغي معرفة تاريخ العالم، وما كان عليه الناس في أرجاء الأرض يوم كان المسلمون سادتها وأساتذتها يعطونها العدل، ويمنحونها الحرية، ويُسوون بينها جميعاً، ويُقدّمون لها العلم.

وإعادة كتابة الجغرافيا والاهتمام بالأمصار الإسلامية، والأقلّيات، ومُشكلات المسلمين، وأوضاعهم، ودور الصليبية في تخلّفهم، والأخوة الإسلامية. ولا مانع من دراسة جغرافية العالم، مع التنبيه إلى دور الدول الكبرى في إذلال الشعوب وإرهاقها، ومن الضروري معرفة أن هذه الدول لم تغدُ كبيرةً إلا نتيجة تسلّطها على بلدان العالم، ونهب خيراتها، واستثمار ثرواتها، واستغلال شعوبها، وتحكّم أبنائها بالآخرين من المستضعفين، وأن هذه الدول الكبرى هي سبب ما وصل إليه العالم من ويلاتٍ صبّها عليه المستعمرون المنصّرون.

وأما بالنسبة إلى التربية فإننا ندرّس أهداف التربية الإسلامية، وجهود المسلمين في هذا المجال، وما يراه الغربيون، ونظرياتهم، ونستنتج أهدافهم، وما يرمون إليه، وأن البشرية لا تُفيد منها شيئاً، ونقارن ذلك مع أهداف التربية الإسلامية السامية التي تعمل على إسعاد أهل الأرض جميعاً. وكذا موضوعات علم النفس، والاجتماع

وبقية العلوم الإنسانية.

وأما بالنسبة إلى الاقتصاد فيجب دراسة النظام الاقتصادي في الإسلام، وتحقيقه الرخاء للإنسانية، والأنظمة الوضعية الأخرى من رأسماليةٍ، وشيوعيةٍ، واشتراكيةٍ، وما فيها من سلبيات لا تتفق ومتطلبات البشرية.

ولا بدّ من الاهتمام الكلّي بالعلوم التجريبية، وإقامة المعامل والمختبرات على نطاقٍ واسعٍ في المدرسة، وفي الحقل، وفي المصنع، ومن الضرورة بمكانٍ ألّا يُدرس علم، ولا يُزرع حقل، ولا يُصنّع صنف إلّا بعد إجراء التجارب في المختبر المرافق.

وإذا لاحظنا أن التعليم إلزامي ولا يصحّ أن يكون مختلطاً، كما أن هناك فصل تام في العمل ومجالات الحياة جميعها، وهذا ما يحتّم على النشء أن يشبّ على درجةٍ من العلم والوعي، عارفاً لأمته بالفضل، ومُقدّراً لنظامه بالصلاحية، وإنقاذه للبشرية، ولا نظام سواه، ويجب العمل والجهاد من أجل تطبيقه لتخليص الإنسانية مما تُعاني، ولإسعادها، وأن هذا الجهاد هو مُهمّة المسلم في الحياة، وأن من يعمل في خطٍّ مُضادٍّ، أو يقف في وجهه، فإنما هو مُعادٍ للبشرية، ولا يُريد الخير لها، ويجب إزاحته عن موقعه الذي هو فيه.

النظام:

الإسلام كما ذكرنا تشريـع يشمل جـوانب الحياة كلهـا، وأتباعـه مُلزمـون بتطبيقـه والأخذ بـه، ومن لم يفعل، وهـو قادر، يعـدّ غـير صادق الإيمان، وربما تصل به المرحلة إلى الكفر، ما دام يُؤمن بشيءٍ ولا يقوم على تنفيذه.

ويعيش في ديار الإسلام المسلمون، وأهل الكتـاب، ومن يلحق بهم من المجوس، وتُؤخذ الجـزية من غـير المسلمين، ولا تُقبـل من غير ما ذكر من اليهود، والنصـارى، والمجوس، ومعنى لا تُقبـل من غـيرهم أي لا يحقّ لغيرهم أن يعيش في ديـار الإسـلام، وهـذا مـا يُخطىء به كثير من المسلمين إذ يُفسّرون الآية الكريمـة ﴿لا إكراه في الدين﴾ تفسيراً غير صحيح، ويضعونها في غير موضعها. إذ يـظنّون أن يـترك أمر العقيـدة كما يشتهي كـلّ فردٍ، منهم من يعبـد الوحش ومنهم من يعبـد البقرة، ومنهم من يعبـد الشمس، ومنهم من يعبـد الحجـر إلى جـانب المسلمـين وأهـل الكتــاب، وهـذا فهم سقيم، وتفسير بعيد كل البعد عن الـواقع. ولكن تعني هـذه الآية الكـريمة ﴿لا إكـراه في الدين﴾ أن المسلمـين لا يُجـبرون أحـداً عـلى اعتنـاق الإسلام، كما لا يُلزمـون امرأً أن يبـدّل عقيدتـه إلى عقيدةٍ أخـرى، وإنمـا يُبيّنون الحقّ، ويُـوضّحون السبيـل، وعلى المـرء أن يختـار مـا يشاء، فإن قبل الإسلام فله مـا للمسلمين، وعليـه ما عليهم، وإن

رضي بديانة أهل الكتاب أو المجوسية فله ذلك، ويسمح له بـالبقاء في ديـار الإسلام، ضمن شروط مُحـدّدة منها: دفـع الجزيـة، وعدم مُساعدة أعداء الإسلام، وعدم إيواء أحدٍ منهم، وعدم دلالتهم على عـورات المسلمـين، وعـدم إظهـار مـا يُخـالف النـظام الإسـلامي (ويشمل النظام ـ كـما سبق أن ذكرنـا وكرّرنـا ـ جميع جـوانب الحياة من سياسةٍ، واقتصـادٍ، واجتماعٍ ، وإدارةٍ، وأخـلاقٍ)، ولا العمل على الدعاية ضدّه أو الترويـج لغيره. وعـدم التطاول عـلى المسلمين حتى في البناء. وأما أمورهم الخاصة بدينهم، والتي أحلّوها لأنفسهم كالخمر، ولحم الخنزير، والسفور، وعدم الحشمة فيمكن القيام بهـا وضمن مساكنهم، وأحيائهم دون المجاهرة بهـا أمام المسلمـين. وأما من لم يقبل الإسلام ولا إحدى ديانتي أهل الكتاب، ولا المجوسية، فله ما أراد، ولكن له الخيار في مُغادرة ديار الإسلام أو عرض نفسه للقتل. والدليل على ذلك:

١ ً ـ قـول الله تعالى: ﴿وأذان من الله ورسـولـه إلى النـاس يـوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسولُه، فإن تبتم فهو خـير لكم، وإن تـوليتم فاعلمـوا أنكم غـير معجـزي الله، وبشّر الـذين كفروا بعذابٍ أليم. إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً، ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، إن الله يحبّ المتقين. فإذا انسلخ الأشهـر الحرم فـاقتلوا المشركين حيث

وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم﴾[1].

٢ً ـ قتل المرتدّ، إذ لم تترك حرية العقيدة حسب تفسير بعضهم ﴿لا إكراه في الدين﴾، ولم يحتجّ أحد بهذه الآية في قتل المرتدّ، ولم يُدافع عنه أحد من المسلمين.

٣ً ـ عدم قبول الجزية من المشركين (عبدة البشر، أو البقر، أو الحجر أو أي مخلوقٍ مما يعبده المشركون من وثنيين وغيرهم). وهذا دليل على عدم وجودهم في ديار الإسلام إذ لا مكان لهم فيها، فإما المغادرة والهرب، وإما السيف.

٤ً ـ الواقع القائم في الأمصار التي فتحها المسلمون، وطُبّق فيها نظام الإسلام ولو لمدةٍ وجيزةٍ حيث لا يوجد فيها مشرك واحد. ومن الناس من يدّعي أن هذا في بلاد العرب فقط لا في غيرها، وهذا كلام مردود إذ ليس في الإسلام فرق بين العرب، وغيرهم، يقول ﷺ: «أيها الناس كلكم لآدم، وآدم من ترابٍ، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، ألاّ هل بلغت، اللّهم فاشهد».

---

(١) سورة التوبة، الآية (٣ ـ ٥).

إنّ أهل الكتاب والمجوس يخضعون للنظام الإسلامي على أنه تشريع ونظام للحكم، وليس شرطاً أن يُؤمنوا به أنه من عند الله. وما دام نظاماً للحكم فلا يحقّ لهم مُخالفته، ولا التعرّض له، وهذا واجب كل مواطنٍ يعيش في أي بلدٍ فيه نظام. فمن لم يحترم هذه الشروط عُدّ خارجاً على النظام، وخائناً للعهد، وأُبعد عن البلاد، أو قُوتل حسبما تقتضي مصلحة الأُمّة، ورسول الله ﷺ أخرج يهود بني قينقاع، وبني النضير، وقتل يهود بني قريظة إذ كانت خيانتهم أكبر.

وميّز العلماء بين المعاهدين من أهل الذمة والمحاربين منهم، فالمعاهدون وهم الذين يبقون على عهدهم، ولا ينقضونه ومن واجب المسلمين حفظه وصونه، أما المقاتلون وهم الذين ينقضون عهودهم، ويخونون ذمّتهم، فيُخرجون، ويُقاتلون، وإذا طبّقنا هذا فقد أصبح الوضع الداخلي نقياً بالنسبة إلى أهل الكتاب وما يتبعهم من المجوس.

أما بالنسبة إلى المسلمين فلم يبق لهم من عذرٍ وقد عرفوا نتيجة رفض النظام، والدعوة إلى تبنّي غيره، والعمل إلى سواه، فإن من يفعل ذلك يعدّ بحكم المرتدّ، وما أمامه إلّا القتل أو التوبة، وفي كلا الحالتين يصبح الوضع الداخلي نقياً. ولكن رُبّما يبقى، وهذا أمر طبيعي، بعض الناس الذين يُظهرون الإسلام، ويُبطنون الكفر

بالعمل سرّاً إلى نظامٍ مُخالفٍ للإسلام، وهؤلاء بحكم المنافقين، ولكن لا يلبث أن ينتهي أمرهم إمّا بمعرفة الحقّ بعد تطبيق الإسلام حيث يجلو الأمر تماماً، وإما بمعرفة أمرهم الذي يُؤدّي إلى نهايتهم. وإن مُحاربة النظام في أيّ بلدٍ من البلدان، وفي أيّ قانونٍ من القوانين يُعدّ جريمةً عقوبتها القتل، وإن اختلفت التسميات، فإذا كانت الأنظمة الوضعية تعدّها خيانةً فالإسلام يعدّها ردّةً التي تعني كفراً وجحوداً للنظام الإلهي. ولا شكّ أن الارتباط مع دولةٍ مُعاديةٍ للإسلام، مُحاربةٍ لأبنائه خيانةً لله، ولرسوله، ولدينه، وللمسلمين جميعاً، وعقوبتها القتل، وهذا ما يُشبه الأنظمة الوضعية التي تعدّ الصلة مع دولةٍ أجنبيةٍ في حالة حربٍ مع الوطن خيانةً، وتدين صاحبها بجريمة الخيانة العظمى ويحكم عليه بالموت، مهما كانت صفة الذي يقوم بهذا الارتباط أو الاتصال، ومن بينهم لا شكّ أولئك الذين وضعهم المستعمرون أوصياء لهم على الشعوب ليُنفّذوا مُخطّطاتهم عن طريقهم. والنظام الإسلامي - كما سبق أن ذكرنا - يشمل جميع جوانب الحياة، ويُنفّذ على كل ما ذكرنا من اقتصادٍ، وإدارةٍ، واجتماعٍ وأخلاقٍ، فلا اختلاط، ولا سفور، ولا إلحاد، ولا علمانية و. . . . .

ولم تبق حجّة لأحدٍ بعدما بيّنت المناهج ذلك، مع العلم أن الجهل بالقانون لا يُبرّر فعل المخالف، ولا يعفيه من العقوبة.

وهذه سياستنا بوضوحٍ ، وهذا ما يجب علينا عمله، وهذا ما نُنفّذه في ديارنا، وليعرف هذا كل مواطنٍ، فهذا ما أمرنا الله به، وما على كل مسلمٍ إلّا أن يستجيب.

المرحلة الانتقالية:

إن ما ذكرناه عندما يكون المسلمون يحكمون ديارهم بأنفسهم، ويُطبّقون شريعتهم، وغير خاضعين لأيّ تأثيرٍ خارجيٍ ، وإنما هم الذين يصنعون القرارات التي تتعلّق بأمصارهم وشعوبهم، ولكن لا بدّ لهم في المرحلة الانتقالية، وهي بين ما هم يعيشون عليه الآن من تمزّقٍ وتجزئةٍ، وتقليدٍ، وهزيمةٍ نفسيةٍ، وخضوعٍ لتأثيراتٍ وضغوطٍ خارجيةٍ وبين الوصول إلى الحكم الإسلامي لا بدّ لهم من العمل على مختلف المحاور بصدقٍ، وإخلاصٍ ، وعزيمةٍ، وإيمانٍ كاملٍ كي يمكنهم الوصول، وأهم نقاط العمل هذه هي:

١ ـ ترك العصبيات على اختلاف أشكالها من وطنيةٍ، وإقليميةٍ، وقوميةٍ، ومهنيةٍ، وحزبيةٍ فإنها جميعها تُخالف الفكر الإسلامي، وتُسبّب التجزئة، وتُعمّق جذورها، وترسّخ أفكارها، والإسلام يُنفّر منها، ويمقتها، ويعدّها نتنةً، ويُحذّر منها واتهام الآخرين بالعصبية ليس سوى تعصبٍ، يظهر بعد كمونٍ، أو يعمل صاحبه على إخفائه باتهام الآخرين.

٢ ـ التعرّف على أساليب الأعداء، وخططهم، ومراميهم، فإن أساليبهم ماكرة، ومُخطّطاتهم خبيثة، وأهدافهم تطفح بالحقد على الإسلام وأبنائه، وبعد التعرّف على ذلك يجب العمل على إبطال ما يُبيّتون بالاستعداد، ونشر الوعي، والانتباه على سلامة الصفّ الداخلي.

٣ ـ عدم الركون إلى الذين ظلموا مهما أبدوا من حسن النوايا الموقّتة، فإنهم كاذبون، ويجب ألاّ نُخدع بأقوالهم، فإنهم لا ينطلقون إلا من خلال مصالحهم، يقول تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾[١].

٤ ـ عدم اتخاذ بطانةٍ من أصحاب السوء، ويجب ألاّ نُخدع بالكلام المعسول، وبالتصرّف الموقّت الذي قد نُلاحظه من بعض ما حولنا، إذ على المرء أن يعرف بطانته من النصائح التي تُقدّمها له، أو الآراء التي تُبديها، أو سكوتها عن التصرّف الذي يقوم به، أو تركه باسم حرية الرأي، إن البطانة أكثر الأمور خطورةً على المسؤول إذ يمكن أن يأتي الحذر من مأمنه. وقد نجد بعض الأفراد من البطانة هم الذين يُسيئون مع أنهم يُحسبون على العمل. وقد

(١) سورة هود، الآية ١١٣.

وصل أُناس إلى أن يكونوا من خاصة المسؤولين، وهم لهم أعداء، ولم ينكشف الأمر إلّا بعد مُدّةٍ، وربُّما بعض أفراد البطانة يتركون المسؤول يقع في المهاوي ليزول من أمامهم، ويحتلّوا مكانه في الصدارة.

٥ ـ الثبات على المواقف التي هي في مصلحة الإسلام دائماً، وترك كلّ ما سوى ذلك باسم المصلحة، أو السياسة، أو الموقف المرحلي، أو اقتضاء الضرورة، إذ وجدت مجموعات تتخذ كل يومٍ موقفاً مناقضاً لما سبق أن اتخذته بالأمس، وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنما يدلّ على قصر النظر، وعلى الاندفاع وراء المصلحة، وعدم الصدق في العمل، وعدم الإخلاص للمبدأ.

٦ ـ التعاون بين التجمّعات الإسلامية التي وُجدت نتيجة تجزئة الأمة، ونتيجة عدم تطبيق الشريعة الإسلامية، ويكون هذا التعاون بالنصح، وتبادل المعلومات، وتنسيق المهمّات، واعتبار كل تجمّعٍ أنه جزء من الحركة الإسلامية العامة التي تشمل الأمة كلها، لا أنها جماعة المسلمين، وما عداها على خطأٍ، وباطل ما هم عليه.

٧ ـ عدم اتخاذ العنف وسيلةً لتحقيق بعض الأهداف فإن هذا يكون سبباً لضرب العمل كلياً فإن الأعداء يتربّصون بنا الدوائر، ويُريدون ايجاد الفرصة لبثّ الشائعات والقيام بعملٍ حاسمٍ. مع

العلم أنّ الذين بيدهم القوة هم الذين يُجبرون الناس على الحركة نتيجة ظلمهم، وإجرامهم، ووسائلهم القذرة، ونتيجة خضوعهم للأجنبي، وتسخيره لهم، ومع هذا فإنّ ردود الفعل يجب أن تكون حكيمةً، ومتعقّلةً، ومُقدّرةً للنتائج.

٨ ـ الانتباه إلى تصرّفات الأفراد لضمان سلامة الخطّ، وسلامة الصفّ.

٩ ـ التعامل بين الأفراد جميعاً مُعاملةً إسلاميةً، ليكونوا قدوةً لغيرهم، فإن المسلمين اليوم بأشدّ الحاجة إلى القدوة، وليسوا بحاجةٍ إلى المواعظ الكلامية، والأحاديث النظرية.

١٠ ـ عدم إشهار الأخطاء التي تقع من بعض الأفراد أو الجماعات، ومُحاولة تضييق ساحة انتشارها، فالنفوس بشرية، ترضى، وتغضب، وتُحاول الثأر إذا أُثيرت، لذا يجب النصح الشخصي، والجماعي، على نطاقٍ فردي، وعلى نطاقٍ أوسع إن اقتضت الضرورة.

وإظهار الأخطاء بالعموميات، وطريقة التصحيح بالأعمال السليمة، وإبراز الصحيح بالأدلّة والتأكيد على الصحيح ليُعرف الخطأ بمعرفة السليم.

١١ ـ التعرّف على المسؤولية الملقاة على كاهل كل مسلمٍ يُؤمن

بـالله واليوم الآخـر أن يدعم هـذا التيار ويُؤيّـده، وينضمّ إليـه كي تتحقق الغاية في تقدّم الموقع، والوصول إلى الهدف بعـد الآخر ليتمّ في النهاية جمع كلمة الأُمّة، وتطبيق الشريعة، وتأديـة المهمّة المنـوطة بالأُمّة المسلمة.

وأخيـراً نرجـو من الله التوفيق، وسـداد الخطا، فهـو نعم المـولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفَهرَسْ

الصفحة